محمد على قطب

صلوا على النبى

أول كتاب فى السيرة للأطفال



محمد علي قطب

صلوا على النبى

أول كتاب فى السيرة للأطفال

المختار الاسلامى
للطبع والنشر والتوزيع
١٦ شارع كامل صدقى بالفجالة
القاهرة ت ٩١١٣٧١


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله ،

نحمده تعالى ونشكره ، ونتوبُ إليه ونَسْتعينُهُ ونستغفره ، ونَعُوذُ بِهِ من شُرور أَنْفُسنا وسّيئاتِ أعمالنا ، مَنْ يَهْدِهِ الله فلا مُضِلّ له ، ومنْ يُضلِلْ فلا هاديَ له .

ونَشْهدُ أن لا إلهٰ إلا الله وَحْدَهُ لا شريك له ، أَوّلٌ بلا ابْتداء ، وآخِرُ بلا انتهاء ، له المُلْك ولهُ الحمْد وهُوَ على كُلّ شيْءٍ قدير .

ونَشْهد أَنَّ سيِّدنا ونبيّنا ومَوْلانا وقدوتنا « محمد بن عبدالله » — المبعوث رَحْمَةً للعالمين ، أَرْسَلَهُ الله بالهُدى ودين الحق ليُظْهِرَهُ على الدّين كُلّه ، فبلّغ الرسالة وأَدّى الأمانة ونصَحَ الأُمّة ، وجاهد فى الله حقَ جهاده .

صلوات الله وسلامهُ عليه وعلى آله وصَحْبه ، والتابعين بإحْسانٍ إلى يَوْم الدين .

أمّــا بَعْـد .

فيا أَحبّائى وأَعِزّائي أبناءَ أُمّتنا الإسلامية ... فى كُلّ أَقْطار الأَرْض ، مَشْرِقها ومغربها ، شمالها وجنوبها ... ، أَنْتم معقد الأَمَل والرّجاء ، وأَنْتم عماد النَّهْضة فى الكبْوة ، وأَنْتم جيل التّبْديل والتَّغْيير ، من الواقع السيِّء المرير إلى غدٍ مُشْرِق كريم ...

ووالله مالكُم من أُستاذٍ أو مُعلِّم ، ومالكم من هادٍ أَوْ مُرْشِدٍ ، ومالكم من قائِدٍ ولاسيد إلا محمد وهَدْيِ تَبُصيرِهِ وتَوْجيهه ، وعظمة سِيرَتِهِ.. تبلغون ذرْوة الْخَيْر ، وقمّة الفلاح والنّجاح ، لأنفسكم ولأهْليكم ولِأُمَتكم .

ولقد عوّلْتُ مُستعيناً بالله تعالى أن أَسْلُكَ معكم فى رواية السيرة الشريفة أُسْلوباً جديداً ، أَسْأل الله العليّ القدير أن يُيَسِّرَهُ لي ، ويهديني فيه سواء السبيل والصراط المستقيم ، ويحقّق من خلاله الْهَدَف الذي نَنْشُدُه .

وهُوَ سبحانه وليُّنا وموْلانا ، بيده الخيْر وإليه المصير ؛ و : صَلُّوا عالنَّبي .. !!

الفصل الأوّل

[أَنا دَعْوَةُ أَبِي « إِبْراهيم » ...]

هذا ماقاله سيِّدُنا رسُول الله « محمد بن عبدالله » – ﷺ – ،

فمـا قَصَّـةُ هذه الدَّعْوة ؟ وما صِلَةُ « إبراهيم » بـ « محمدٍ » عليهما الصلاة والسلام ؟ وكيْف هُو أَبُوهُ ؟

وَلَـدِيَ العزيز :

منذ أَمدٍ بعيد .. مُنْذ مئاتِ السِّنين ، خَرَج « إبراهيم » – عليه السلام – من أَرْض « حَبْرون » في فلسطين ، مُتَجِهاً إلى بَرِّيَّةِ « فاران » – أرض « الحجاز » في شِبْه الجزيرة العربيّة – ومعه زَوجته المصريَّة – « هاجَر » – والطِّفْل الرضيعُ « إسماعيل » ...

وذلك بأَمْرٍ من الله تعالى وتَقْديرٍ وتدبيرٍ مِنْه ...

* * *

فلما بَلَغُوا وادي « بكّة » ، حَيْث « البيْت الحرام » – الكعْبة المَشَرَّفة – ، وكانَتْ قد زالَتْ معالِمُها ، وطَغَتْ عليْها الرمال ... فَغَطَّت قواعدها ...

هُناك تَرَكَ « إبراهيم » زَوْجَتَهُ وَوَلَدَهُ ... وولّى راجعاً بآتّجاهِ فلسطين ...

فَعجبت « هاجَرُ » لذلك ، ثم سَأَلَتْ « إبراهيم » :

ــ آ لله أَمَرَك أن تَتْركنا هُنا ..؟؟

قــال :

ــ نعم !!!

فقالت « هاجر » المؤْمنة الواثقة :

ــ إنّ الّذي أَمَرَك لا يُضيِّعُنا .

ولم يكُن مع « هاجر » ورضيعها .. إلاّ سقاء ماءٍ وجراب تَمْرٍ ...

ولكن إلى متى يكفيهما ذلك ؟

فَلّما نَفَذَ ما مَعَها ... وخَفَّ دَرُّها لِرضيعها .. اشْتَدَّ بُكاؤه من الجوع والْعَطَش ، واشتد صُراخُهُ ..، فقامت تسْعى بَيْن صَخْرتَيْن عاليتَيْن ، كأنهما جبلان ، وتَنْظُر هُنا وهناك لعلَّها ترى أَثَراً أَوْ بَشَراً ... ولكن على غير طائل ...

فعادَتْ إلى حَيْث تركت « إسماعيل » تَبْكي ... ، فَوَجَدَتِ الماء يتفجَّر من بَطْن الْأَرْض ، من تحْت قدمَيْه ... ، ثم يسيل في الوادي ... ، فَدُهشت وسُرَّتْ ... ، ثم قامتْ تجْمَعُ التراب والرَّمْل حوْل فَوْهة الماء ، وتَزُمُّه ...

* * *

وأقامت « هاجر » مع طفلها عِنْد الماء ... عندْ « زَمْزَم » ...

وآسْتَقَرَّ بها المقام ؛

ومرَّ بالمكانِ قَوْمٌ من « بنى جُرْهُمٍ » ... فقالُوا مُتَعَجّبين : ما عَهِدْنا بهذا الوادي ماءً ولا بَشَراً !!! ثم آسْتأْذنُوا « هاجَرَ » بالإقامة معها ، فَأَذِنَتْ لهم بِشَرْط أن لايكون لهُم نصيبٌ في الماء إلاّ السِّقاية ، فَقَبِلُوا ...

وَبَدأ الوادي يَخْفَلُ بالحركة ، ويَنْمُو ...

وكان « إبراهيم » – عليه السلام – يتردَّدُ بيْن الحين والحين على « هاجر » وولده « إسماعيل » يطمئنُّ عَلَيْهما ، ويُبارك مقامهما ...

ثُمّ لمّا شَبّ « إسماعيل » وكَبِرَ وبَلَغ السَّعْي مع أبيه ، مرَّ الإثنان بِدَوْر تَجْرُبةٍ وآبْتلاء من الله تعالى ، إذْ رأى « إبراهيم » في المنامِ رُؤيا :

﴿ قال يابُنَيَّ إنّي أرى في المنام أنّي أذْبَحُكَ فانْظُرْ ماذا ترى * قال يا أبَتِ افْعَلْ ماتُؤْمر ستَجِدُني إن شاءَ الله من الصابرين ﴾ .

فلمّا شَرَع « إبراهيم » في التَّنْفيذ ... جاءَ الفداءُ من الله تعالى وَنَجا « إسماعيل » من الذَّبْح :

﴿ وناديْناهُ أنْ يا إبراهيم قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤيا إنّا كذلك نَجْزي الْمُحْسنين * إنّ هذا لهُوَ البلاءُ الْمُبين * وفَدَيْناهُ بِذَبْحٍ عظيم ﴾ .

[وَإذْ يَرْفَعُ إبْراهيمُ الْقواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ]

وجاءَ إلى « إبراهيم » – عليه السلام – أمْرٌ إلٰهيٌّ آخر وهو إعادَةُ بناء « الْكَعْبة » ... ، فَصَدَعَ بذلك ، هو وولده « إسْماعيل » ، وشَمّرا عن سواعد الْجِدّ والنشاط ، وعُملا بِدَأْبٍ وآهْتمام حتّى أتَمّا الْعَمَل الْعَظيم .

فلمّا آنْتَهَضَتِ « الكعْبة » الْمُشرَّفَةُ ماثلةً لِلْعيانِ ، دعا « إبراهيم » و« إسماعيل » – عليهْما السلام – أنْ يَتَقَبَّل الله تعالى مِنْهما ذلك :

﴿ وَإذْ يَرْفَعُ إبراهيمُ الْقَواعِدَ من البيْتِ وإسماعيل ربَّنا تَقَبَّل منا إنك أنْتَ السَّميعُ العليم * ربَّنا وآجْعَلْنا مُسْلِمَيْن لَكَ ومن ذُرِّيَّتنا أُمَّةً مُسْلِمةً لَكَ وأَرنا مناسكنا وتبْ عليْنا إنّكَ أنْتَ التوّاب الرحيم * ربَّنا وابْعَثْ فيهم رسُولاً مِنْهُم يَتْلُو

عَلَيْهم آياتِكَ ويُعَلِّمهم الكتاب والحكْمة ويُزَكيهم إنَّك أَنْتَ العزيز الحكيم ﴾[1]

وآسْتجاب الله تعالى دُعاءَ نبيِّه « إبراهيم » – عليه السلام – بِبَعْثِ الرَّسُول .. !!

[« عَبْدُ الله » – الـذَّبيح ...]

وتَسَلْسَلَتْ ذُرِّيَّةُ « إسماعيل » – عليه السلام – ، بعد أن تَزوَّج فتاةً من قبيلةِ « جُرْهَم » فكان من تِلْكُ الذُّرِّية الطَّيِّبة « عَبْد المطلب بن هاشم بن عَبْد مناف » ...

وراح أَبْناء الْعُمُومةِ يُفاخِرون« عبد المطلّب » بِقِلَّةِ المالِ ، والْوَلد .. !! فَنَذَر : « لَئِنْ رَزَقَهُ الله عَشرة من البنين الذُّكُور لَيَذْبَحَنَّ آخرهُم تقرُّباً للآلهة !!! » .

وتمّ لِـ « عبدالمطّلب » عَشر ذُكُورٍ بولادَةِ « عبدالله » ، والد النبيِّ ﷺ ... ، ولمّا أَرادَ وفاءَ النَّذْر قام الناسُ في وَجْهِهِ يَمْنعُونه ، ويَحُولُون بَيْنه وبَيْن ذلك ،

لا إشْفاقاً على « عَبْد الله » ولا حُبّاً فى « وعبْدالمطّلب » ، ولكن حتى لايكون ذلك سُنّةً وعادَةً مُتْبعة .

* * *

ثم قال الجميع : ماذا نَفْعَلُ إذاً ؟؟

---

(١) سورة البقرة الآيات (١٢٧–١٢٩) .

فاقترح أحَدُهم أن يَذهَبُوا إلى عرّافةٍ في « اليَمَن » يَستَفتونها في الأمر ويستشيرونها ... ، فقصدوها ... ، فقالت لهم أن يَضربُوا بالقِداح على « عبدالله » وعلى عَشرٍ من الإبل ، تكونُ له فداءً ... ، ثم يزيدوا في ذلك إنْ خرجت القِداحُ على « عبدالله » ... ، حتى ترضى الآلهة !!!

وعادوا إلى « مكّة » وأجروا القُرعة ...

ومازالت القِداحُ تَخْرُجُ على « عبدالله » حتى بَلَغَ عَدَدُ الإبِل مائةً ... ، ثُمّ خَرجَتْ على الإبل ، وافْتُدِيَ « عَبْدالله » أغْلى فداء .

[الشـبابُ والزّواجُ]

كان « عبدالله » من أَحَبِّ أبْناءِ « عبدالمطلب » إلى قلْبِهِ ... ، لما كان يتجلّى في مُحيّاهُ من نُورٍ وإشْراق ، ولما استَوْدَعَهُ الله تعالى فيه من سِرِّ النُّبوَّة ... ، وازداد هذا الحُبُّ والعَطْفُ بَعْد الفِداءِ ...

فلما اكْتَمَل نُضُوجاً وشباباً زَوَّجه والده من فتاةٍ من « بني زُهْرة » تُدْعى « آمنة بنتَ وَهْب » فهنيءَ كلاهُما بالآخر ، وسَعِدَ بِهِ ...

ومرَّتْ بهما أيّامٌ طيِّبةٌ حُلْوة ... ، حتى اكْتملَتْ شُهُوراً ثلاثة ...

* * *

[اليتيـــم ...]

ثم خَرَج « عبدالله » في قافلةٍ تجاريَّةٍ إلى « غزَّة » في الشّام ... ، وفي طريق العوْدةِ وقع فريسةً لِلْمَرض ... ، فأقام بِهِ أخوهُ الذي كان يرافِقُهُ في « يثْرب » ... عند أخوالِهِ من « بني النّجار » ثم توفّاهُ الله تعالى ... ودُفِنَ هُناك .

وكانت الصَدْمةُ قاسيةً وعنيفةً على « عبدالمطلب » ... ، وأيْضاً على العروس « آمنة بنت وهْبٍ » ، التي لم يكُن قد مضىَ على زواجها سوى أشهر قلائل ... ، وكان إحساسُها بالفاجعة أكْبر ... بِسَبَبِ الجنين – الكريم – الذي بدأ يتحرّكُ في أحْشائها .

* * *

وتَجِدُ « آمنةُ » بَعْض العزاء حين يزورها « عَبْد المطلب » ... ، متحاملاً على نَفْسِهِ في هَمِّهِ الشديد ، وشَيْخوخَتِهِ ، كاتماً آلامَهُ وأحْزانَهُ ... ، يُحاوِلُ الابتسام في وَجْهها ، ومواساتها ببعْضِ الكلمات والعبارات ... ، ولِيَطْمئن على حَمْلِها ، وتقديم مايلزمها من شئون المعاش وأسباب الحياة .

وما كانَتْ « آمنة » لِتَعْلم بأنّها قد حَمَلَتْ بـ « سيِّد وَلَدِ آدم » ، وأنَّ في أحشائِها جنيناً هُو أقْدس الأجنّة وأطهرها .. ، غير أنها كانَتْ تُحسُّ أثْناء فترة الحمل بأوْضاعٍ غريبة عجيبة ، حَدَّثَتْ عنها بعد ذلك ، ورواها الرواةُ من بَعْدِها .

ثم لَما تمّتُ أشهر الحُمْل واقْترب ميعادُ الولادة والْوَضْع ، وكان الطَّلْق يُعاوِدُها .. ، وعلى الرغم من شدّته وعُنْفِهِ و ... ثِقَلِهِ لم تَشْعُر بألَم ولا وَصَبٍ ولا نَصَب ...

لقد كان حَمْلُهُ – ﷺ – خفيفاً .. ، وكان وَضْعُهُ سَهْلاً لَيِّناً ، وكانت إطلالَتُهُ على الدُّنيا وعلى الوجود رَحْمةً ونوراً .

وَمَعَ فَجْرِ يَوْم الإثنين ، الثاني عَشَر من ربيع الأوَّل ، سنة خمسمائة وسَبْعين للميلاد (٥٧٠) م ؛ وضَعَتْ « آمنة » وليدها « محمداً » – ﷺ – .

أما اللّيلةُ فكانت مهيبةً عظيمةً جليلة ... ، إذْ حَفَّت بدار « آمنة » آلاءٌ وأنْوار ، وأفْواج من الملائكة تَغْدو وتَرُوح بَيْن السَّماءِ والأرض تَزُفُّ الْبُشرى ...

* * *

[« مُحَمَّـد » - ﷺ -]

وَلِدَ سيدنا رسُولُ الله ﷺ مسروراً مَخْتُوناً ... ، وتلْك من جُمْلةِ كراماتِهِ ﷺ ؛ ولقد وقَعَ من بَطْن أُمِهِ ساجداً !!!

وهي صُورَةُ الدُّنُوِّ من الله تعالى ، التي حدّثنا عَنْها رسُولنا ﷺ إذْ قال :

« أقْرَبُ مايكُونُ الْعَبْد إلى رَبِّه وهُوَ ساجد ... »

حُمِلَ النّبأُ إلى جدِّه « عبدالمطلب » ، فكاد يَطيرُ فَرَحاً ... ونَشِطَ نشاطاً عظيماً فَكأنَّه آسْتعادَ كُلّ رُجُولتِهِ وشبابِهِ ، ثُمّ أعطى الذي بَشَّره بالنّبأ السعيد جائِزَةً ماليَّةً كبيرة ، وعلى الفوْر قَصَد إلى بَيْتِ « آمنةِ » ... ،

ودَخَل الدار وهُوَ يَقُول : أرُوني إبْني ... أرُوني إبْني ...

وتَرَفَّق في حَمْلِهِ بَيْن ذراعيهَ ، مع كُلّ الْحُبِّ والحنانِ والْعَطْف ...

وآنْهَلَّتْ دُمُوعُهُ من عَيْنيه ، تُعَبِّر عن حنين الذّكْرى إلى وَلَدِه « عبدالله ... مع فَرْحَتِهِ بالمْولود الجديد ...

ثُمَّ أسْماهُ : « مُحَمَّداً » .

* * *

[من « آمِنَــة » إلى « حليمـة »]

لقد كان من عادة الأُسَر العربية العريقة وخاصَّةً القرشيَّة منها ، أنْ تستَرْضِعَ أبْناءَها الذُّكُور في الْبوادي ، حَيْث الجوّ الصافي النقيّ والمناخ الصِّحّي ، فَتَتوفّر لهمْ هُناك أسباب النَّشْأةِ البدنّية القويّة ....

وكانت « مكة » – أم القُرى – محطَّ أنْظار أعْراب البادية ، يأْتونها لَيَحْملُوا منها الأطفال المولودين حديثاً ... ، طامعين بالأَجْر الوفير والأُعْطياتِ المجزية .. ، لسبب غنى « قريش » ومكانتها .

* * *

وفي الأَيام التي وُلِدَ فيها سيدنا رسُول الله ﷺ ، نَزَل بـ « مكة » جماعة من بادية « بنى سَعْد » ... لهذا الغرض .

وأخذت النّسْوةُ منهم يأْتين الْبيُوت كيْ يَنَلْنَ حَظَهُنَّ من الأَطفال الرُّضّع ، وأَعْرضن جميعُهُنَّ عن أَخْذ « محمد » – ﷺ – بسبب يُتْمِهِ وقِلَّة ذِات يَدِ أَهْلِهِ .

وكان من بَيْن هؤلاء « حليمة بِنْتُ أبي ذُؤَيْبِ » – السَّعْديَّة – ، وأَعْرضَتْ عن « محمد ★ كما أعْرَضْن ، ولكنّها بعد أنْ كَلَّتْ من الطواف ويئست من الحصول على رضيع ... ولم تَظْفَر بِبُغْيتها ... ، كرَّتْ راجعةً إلى بَيْتِ « آمنة » ، ... لتأْخُذ الوليد الرضيع على مضضٍ ... وهي لا تَدْري ما يُخَبِّئُه لها الْقَدَر !!! ،

[الْخَيْر والْبَرَكَةُ]

لقد جاءَت « حليمةُ » إلى « مكّة » مع زَوْجها على أُتانٍ[1] لهمُا هزيلة ... ، ضعيفة قميئة[2] ... ، لا تكادُ تَمْشي خطواتٍ حتى تتوقَف ... ، وكم قَعَدَتْ بها عن مواكبة صُوَيْحباتها اللاتي خَرَجْنَ معها .. ، كما كانت أتانُ « حليمة » موْضع تَنَدُّرِهِنَّ وسُخْريتهِنَّ ..!

أما عِنْد العوْدة من « مكّة » فقد اخْتلف الْأمْر ...

كانت « حليمة » تَضَعُ « مُحَمَدّاً » - ﷺ - في حِجْرها .. ، والْأَتانُ تعْدو عَدْواً سريعاً ، وتَنْشَطُ في السَّيْر لِيُتَلِّفُ كُلّ الدوابِّ وراءَها ، من أَبْعِرَةٍ وخَيْل وغيرها !!؟

مِمّا جَعَلَ الجميع يعجبون ويَدْهَشُون ، ويتساءَلُونَ : ما السِّرُّ في كُلّ هذا التَّغْيير ؟

* * *

وأَيْضــاً ...

تُحدّثنا «حليمة» أَنَّ ثَدْيَيْهَا لم يكونا لِيدِرّا بقَطْرة لبنٍ ... ، وأن طِفْلها الرَّضيع كان دائم البكاء من شِدّة الجوع ... ، فَلّما أَلْقَمَتْ أَحد ثديها لرسُول الله ﷺ دَرَّ غزيراً .. !

وتحكي لنا عن جَدْبِ أَرْضها فى ديار « بني سَعْدٍ » ...

فلمّا حَظِيَتْ بشرف إِرْضاع النبيِّ ﷺ أَخْصَبَتْ أرضها وأنتجت

---

(١) الأتان : أنثى الحمار .

(٢) قميئة : صغيرة الحجْم .

ماشيتها .. ، وتَبَدَّل حالها كُلّه ، من فَقْرٍ مُدْقِعٍ وبُؤْسٍ ... وشَظَفِ عَيْشٍ إلى رخاءٍ وهناءٍ ويُسْر ...

أمْضى رسُولُ الله ﷺ سنتيْن في حجْر « حليمة » تحرِصُ عليه وتتعهده ، وتُحِسُّ من أعماقها بأنّ أشْياء وأحْوال غير عاديَّةٍ تُحيطُ بهذا الطِّفْل المبارك ... وأنّ أثَر هذه البركة تنالُ كُلّ من حوْله وتشملهم ...

وبعد مُضيّ السنتيْن رَجَعَتْ بهِ « حليمة » إلى أُمّهِ « آمنة » وجدّه « عبدالمطلب » في « مكة » . وكَمْ كانَتْ فرحَتُهُما بِهِ عظيمةً وكبيرة ...

حَمَلَهُ جَدُه « عبدالمطلب » وخَرَج به إلى « الكعْبة » أخَذَ يَطُوف حَوْلها وهُو يُردّدُ :

الحمدُ لله الذي أعْطاني هذا الغُلام الطيّب الأرْدانِ[1]

أما أُمُّه « آمنة » ، فقد تعلّقَتْ بهِ ، وأقبلت عليْه تَضُمُّه وتشمُّهُ وتُقَبِّله ... ، ولا تُطيق فراقه والْبُعْد عَنْه ...

لقد رَأَتْهُ نما وكبر ... ، يَسْعى على قدميْه بخطوتٍ ثابتةَ ، يُدْرك الْوجُوه والْأصْوات والْأشياء ، في وَعْي غير عادي ، وغير مألوف .

[مُـدَّة ثانيـة !!!]

مكثت « حليمة » عند « آمنة » أيّاماً ... والطِّفْل يتردَّدُ بيْنَهُما ...

ثم آن أوانُ عَوْدتها إلى ديارها ، وقد انْتهتْ مَدَّة الرضاع الأولى ... ، لكنها وقد رَأَتْ من بركتِهِ ﷺ ما رَأَتْ .. ، وما غَيْر حالها وأَسْعَدَ بالها .. وأكْرَم عَيْشها ... ، رغبت في حَمْلِهِ معها إلى ديارها ، ومن غيْر أجْر ... في هذه المرّة .

---

(١) الأرْوان : أطراف الثوْب .

فألحّت على « آمنة » أن تُوافق على ذلك بكُلّ الرجاء والاستِعْطاف ... ، فقبلت بعد طول تردُّدٍ وآمْتناع ... وعادت « حليمة » إلى ديارها ومعها الطفل اليتيم ...

القرشيّ العظيم ...

تغمرها الْفَرْحة ، وتكادُ تطير بها السعادة .

[﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَك .. ﴾] ...

في ذات يَوْم ، من أيام إقامته الثانية ﷺ عِنْد « حليمة » ، وقد قارَبَ الرابعة من عمره .. ، وبيْنا هُوَ يلْهو ويلْعب مع أخيه من الرضاع – ابن « حليمة » – ، خَلْفَ الخيام والأَخبية ...

إذا بآبْنِ « حليمة » يأْتي أُمَّه راكضاً لاهثاً ، على وَجْهه أمارات الخوْف والرُّعب ، طالباً إلى أُمّه أن تُدْرك أخاهُ القرشيّ ... ، وحين سأَلتْه عن السبب قال :

ـــ لقد رَأَيْتُ رجُلَيْن بثياب بيْضاء ، قد هَبطا عَلْينا ... لا أَدْري من أيْن ، فَأَخذا أخي من بَيْننا ، وأَضجعاهُ وشَقّ صَدْرَهُ ...

ولم تَتْركْه « حليمة » يُكْمل الرواية ... بل أَخذت تَرْكُض نَحْو « محمد » ... الطّفلِ اليتيم ... ، فَرَأتْهُ واقفاً في مكانِهِ لا يَتَحرَّك ... ، قد عَلَتْ وَجْهَهُ صُفْرَةٌ شديدة ... ، فَسَأَلَتْه عمّا بِهِ ... ، وماذا كان من أمْرِه ... ، وَهَلْ يَشْعُرُ بِأْساً أَوْ أَلماً ؟؟؟

فَأَخبرها أنّه بِخَيْر ...

وحكى لها أنَّ رجُلَيْن بثياب بَيَضاء أَخذاهُ بِرِفْق من بَيْن رفاقِهِ غَيْر بعيدٍ ، فَأَضْجعاهُ ، وشَقَا صَدْره ... وآستَخْرجا قَلْبَهُ من صَدْره .. وآستَخلصا مِنْه

عَلَقَةً سَوْداء .. طَرَحاها أرضاً ... ، ثم غَسَلا الْقَلْبَ بماءٍ باردٍ وأعاداهُ إلى مكانِهِ في الصَّدْر ... ، ثم مَسَحا فَوْق الصَّدْر .. ، وغابا عن الأنظار ، كأنهما آختفيا ...

جَزِعَتْ « حليمة » وآضْطربت ... ، وأحسَّت كأن الأرْض تميدُ من تَحْتها ... ، وأَدْرَكت فداحة المسئولية التي تُطَوِّقُها ... ، واهتدت يدُها برِفْق وحنانٍ تَتحسَّسُ مَوضع الشَّقِّ والشَّرْخ ، فلم تجد أثراً ... ،

وعادَتْ بـ « محمد » – ﷺ – إلى الْخباء وهي تحْرص عَلْيه كُلّ الْحِرْص .

وآتَّخذت قراراً ...

فَمَع إطلالة فَجْر الْيَوْم التالي كانت « حليمة » في طريقها إلى « مكة » ومعها « محمد بن عبدالله » ... تُعيدُهُ إلى ذَويه وأَهْلِهِ .

وتعجَبت « آمنة » من عَوْدة « حليمة » على هذه الصورة المفاجئة ... ، وفي غير الوقْت المتّفق عليه .. ، كما آستغْربَتْ منها إصرارها على إعادة الطّفل ، بعد أنْ كانَتْ راغبةً فيه رَغْبَةً شديدة ، فسألَتْها عن السَّبب ...

وكانت « حليمة » تتردَّدُ في إخبار « آمنة » بالحادثة التي جَرَتْ ... ، وإزاء الإلْحاح لم تجد بُدّاً من الإخبار ، فَرَوَتْ لها الواقعة ...

وتبسَّمَتْ « آمنةُ » ولم تُبْدِ آنْزعاجاً أو اضطرابا .. ، بل أَضافَتْ أنّها هي الأُخرى قد رَأتْ في اثناء حَمْله ووَضْعِهِ – ﷺ – ما هُوَ أَعْجب وأَغْرَب ، ثم قالت :

– إنّه سيكون لآبني هذا شَأْنٌ ... وأيُّ شَأْنٍ !!!

[أَبْـلَغُ الْيُـتْم]

واستأْذَنَتْ « آمَنَةُ » - « عَبْدَ المطلبِ » بالخروج إلى « يَثْرِب » لِزيارَةِ أَخوال الطِّفْل من « بني النّجار » ولعلَّها كانَتْ تُريد زيارة قَبْر زَوْجها الحبيب « عبدالله » ... وآسْتِرْجاع الذكرى .. ، فَأَذِن لها ... وهُوَ يَشْعُرُ بالأَسى لفراق الطفل أَيّاماً ... ووصّاها بالْحِرْص عليه .

وفي « يثرب » قَضَتْ أَيّاماً ... ، ثم عادَت إلى « مكة » ولكنها لم تَبْلغها ... ، فبيْنا هي في الطريق ، وفي مكانٍ يُسمّى « الأَبواء » مَرِضَتْ .. وأَشْتَدّ عَلَيها المَرض ... ، حتّى فاضَتْ رُوحُها إلى بارئها ، ودُفِنَتْ هناك .

هَلْ تتصوّر - ياوَلدي العزيز - مَوْقف النبى ﷺ في تِلْك اللّحظات ... المؤثّرة ..!؟

إنّه طِفْل صغير ، فَتح عينيْه على نُورِ الحياة دوُنَ أن يُحِسّ حنان الأُبوَّة ، وها هو الآن يَدْرُج نحو السادسة من عُمْره فَيُوَدِّعُ صَدْراً حَنُوناً ، وذراعاً أمينةً ، وقلْباً فَيّاضاً بالعاطفة ...

بكى .. ثُمّ بكى ... ، وأَجهَش في الْبُكاء ...

وعندئِذٍ آحْتَضَنَتْهُ ذِراعا « بَرَكة الحبشيّة » - موّلاتُهُ التي كانَتْ ترافِقُهُ مع أُمّه في الرِّحْلَة ... ، رَبَتَتْ عَلَيْه ، وهَدْهَدَتْ من ثورةِ حُزْنِهِ وتَفَجُّر أَلمِهِ ... ، وعادَتْ بِهِ إلى « مكّة » .

عادَتْ بِهِ إلى جَدّه « عبدالمطّلب » ...

وكان على الْجَدّ في تِلك الظروف القاسية المريرة أَنْ يُعَوِّض « محمداً » - ﷺ - الكثير ... ، فَرَعاهُ وكفله ، وحنا عليْه حُنُوّاً بالِغاً ... ، وآسْتَفْرَغ كُلّ ما أَوْدَعَ الله في قلْبِهِ من عاطفةٍ صادقةٍ طيبة ...

وكان « عبدالمطلب » صاحبَ مكانةٍ سامية ، لَيْس في بني هاشم « وَحْدَهم » ، بل في قُرَيْشٍ كُلِّها ، إذ لَمْ تكُن قد مَضَتْ غير سنواتٍ معدوداتٍ على وقْفتِهِ الشُّجاعة الفذّة في وَجْه « أَبْرَهة » الحبشيّ ، الذي قدِم من الْيَمن « في جَيْشٍ عَرَمْرَمٍ » ، يتقدّمه فيلٌ ضَخْم ، يُرِيدُ أَنْ يُهْدم « الكَعْبة » – بَيْتَ الله الحرام – حَسَداً وغَيْظاً وحِقْداً ...

* * *

و« عبدالمطلب » لم يُواجه « أَبْرهة » بسلاحِ السَّيْف والرُّمْح ... ، أو القتال ولنّزال ، بل واجَهَهُ بالكلمة الجرئية والتوكُّل على الله تعالى ... ربّ البيْتِ الحرام ... ، فهُو الذي يحميه ويحْرُسُه من كُلّ مُعْتدٍ ... آثمٍ ... ظالم ...

وأَلْمحُ على فَمِك – يا ولدي العزيز – وأَنْتَ تَقْرأ هذه الفقرات ... ، تمْتَمَةً ... ، ثُمّ أَسْمَعُها على لسانِكَ تلاوَةً .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْف فَعَلَ ربُّكَ بِأَصْحاب الفيل * أَلَمْ يَجْعل كَيْدَهُم في تضْليل * وأَرْسَلَ عَلَيهم طَيْراً أبابيل * ترميهم بحجارةٍ من سِّجيل * فَجَعَلَهُم كعصف مَأْكُول﴾ ...

وإلى جانب كوْن ذلك اليوْم – يوْم « عبدالمطلب » ، شَيْخ « بني هاشم » و« قريش » في وقفته الصامدة وكلمته المأثورة ، في وجْه الطاغية « أَبْرَهَةَ الحبشيّ » ... ، فإنه كان أَيْضاً يَوْم « محمدٍ » – ﷺ – لأنّه كان أَوانُ ولادتِهِ وزَمَنُ خروجِهِ إلى الدُّنيا .

ألا تلاحظ معي – ياولدي العزيز – هذا التوافق الرائع العظيم في آرْتدادِ « أبرهةَ » وجَيْشِهِ عن بَيْتِ الله الحرام ... وهزيمتِهِ من غيْر قتال ... وآنكسارِهِ من غير نزال ... ، وفنَائِهِ مع جَيْشِهِ الكثيف ... ، مع ميلاد « محمد » – ﷺ – !!!

ذلك تقدير العزيز العليم .

وليكُون من بُعْدُ نِبْراساً وَعِظةً لِكُلّ المؤمنين الْمُوَحّدين ، وتَظَلَّ « الكعْبة » قِبْلةً إلى أَبَدِ الآبدين .. !

* * *

احتل « عبدالمطلب » في قُرَيْشٍ مكانةً سامية ، فكان موْضع التقدير والأحترام من الجميع ، وكذلك في « بني هاشم » قوْمه وأهْله ، فهو رأسُ الأُسْرةِ وعَلَمُ الجماعة .

وسرى ذلك كله إلى « محمد » - ﷺ - الطِّفْل اليتيم ، فالجميع يُحبّونَهُ ، ويُقدّرونَهُ رغم طفولته ، بسببٍ من جدّه العظيم .

كان لِـ « عبدالمطلب » مقعدٌ في جوار « الكعبة » ، فراشٌ يُبْسَطُ له ويَجْلِسُ عليه ، ويتحلّق من حَوْله أبناؤه وغيرهم .. في جلالٍ ووقارٍ .

وكان الطِّفْل اليتيم « محمد » - ﷺ - يَأْتي فَيَجْلس بإزاء جدّه ...

وفي المرّة الأولى .. حاوَل بَعْضُهُم أنْ يَمْنَعَهُ آحْتراماً لمقامِ « عبدالمطلب » ... ، فَزَجَرَهم الشّيْخُ الوقور وأنّبَهم .. ، ثم أَخَذ بيد « محمد » - حفيده وأحْتَضَنه وأَجَلَسهُ بجواره ، فَعرَف الكُلُّ قدْر « محمد » عند « عبدالمطلب » ، فراعُوا ذلك ، وأَنزلُوا الطِّفْل من قلوبهم ونُفوسِهم منْزلاً مباركاً وكريماً .

[تتـابعُ الْمِحْنــة]

سَنَتانِ مَرّتا على سيّدنا رسُول « ﷺ » في كَنَفِ جدّهِ « عبدالمطلب » أَحَسَّ خلالهما بشيْءٍ من الأَمْن والأَمانِ .. وبِبَعْضِ الآسْتقْرار ، وَبَدَأَ يتعوّدُ الحياة ... وَيَأْلَفُها ..

لكنه ، لم يكد يَبْلُغ الثامنة من عُمْره حتى توفى الله تعالى « عَبْدَ المطلب » ، فَتَفَجْرت في نَفْسِ الطِّفْل اليتيم كُلّ ترسُّبات الماضي ... ، وطَفَتْ على سَطْح ذاتِهِ ونفسه ... ذكْرياتُ أليمة مريرة ، لمْ يَرَ الْأَبَ ...

وفقد صَدْر الْأمّ الْحنُون في طفولةٍ مبكِّرة ...

وها هُوَ الْيَوْم يُودّع الجدَّ العظيم ...

إنّها مِحَنٌ قاسيةٌ تتتابَع ... ، ولله – سُبْحانَهُ – فيها تَقدير وتدبير ...

كان « عبدالمطلب » قبل وفاتِهِ قد أَوْصى آبْنَهُ « أبا طالبٍ » بكفالةِ « محمد » – ﷺ – ورعايتِهِ . فكفله ورعاه ، رغم كثرة عيالِهِ وقِلّةِ مالِهِ ، وعامَلَهُ هُوَ وزوجته « فاطمة بنت أَسَدٍ » كواحدٍ من أبنائهما الْكُثُر ... ، يغدقانِ عليه من فيْض عَطْفهما ، ومحبّتهما ...

ولعلَّ الإحساس بالوحْدة ، بعد فقدانِ الأمّ والْجَدّ .. ، جَعَلَ « محمداً » – ﷺ – يتعلّق بعمه « أبي طالبٍ » إلى حدٍّ بعيد ...

وشَعَر فِعْلاً بمعاني الْأبُوَّةِ تسْري في كيانِهِ .. ، وكأنها ضياءُ النّهار المشْرِق بَعْد ليْلٍ طويلٍ من الْأحْزان ... ، وكذلك معاني الْأُمومة في وشائجها وعلاقاتها ... ، ولقد أُثِرَ عَنه ﷺ أنّه ما كان يُنادي زَوْجة عَمّه إلا بقَوْله : [يا أُمّه ..] .

[أَدَّبَني رَبِّي ...]

في هذا الجوّ الكريم ... ، الدافىء بالْحنان ، الغامِرِ بالرِّعاية ... ، بَدَأَ تكوُّنه الأوّليّ (ﷺ) ، بعنايةٍ من الله جَلَّ جلاله .. وتوْجيهه وتدبيره سُبْحانه ؛ فَنشأَ عليه الصلاة والسلام – على أَعظم خلّتيْن ، رافقتاهُ مُنْذُ نُعومةِ أظْفارِهِ وطوال عُمْره ... هُما : الصِّدْق والْأمانة ، حتى أَصْبَحَتا لَقَباً يُعَرَفُ بِهِ من غَيْر أنْ يُذْكر بالإسم ... ، فإذا ما قيل في نادٍ أو مُجتمعٍ من مجامع الناس :

حَضَرَ (الأمين) ، أو جاءَ (الأمين) ، عُرِف أنَّه « محمد بن عبدالله » — ﷺ — .

[إنَّ لابْنِ أخيك شأناً ...]

كان الْعَمُّ « أَبُو طالبٍ » تاجراً مِنْ تُجّار « قُرَيْش » ... ، يكْدَحُ في سبيل لُقْمَةِ العيْش ، يَدُور مع القوافل إلى الشام ، يبيع ويَشْتري ...

وفي يَوْمٍ ، وبَيْنا كان يَتَجهَّزُ في داره للسَّفر ، ومُوَاكبة القافلة الذاهبة مع فَجْر الْغد ، تعلَّق به آبْنِ أَخيه ... ورجاهُ أن يأْخُذَهُ مَعَهُ ...

ولعلَّنا — يا ولدي العزيز — نتساءَل عن الدافع الذي جَعَلَ « محمداً » — ﷺ — يَطْلُبُ هذا الطلب ، ويتعلَّق هذا التعلُّق ، ويَرْجو هذا الرجاء ...

هَلْ هُوَ حُبُّ السَّفر والتعُّرف على الناس والعبادِ والبلاد ؟ أَمْ هُوَ حُبُّ الْعَمَل والاعتماد على النَّفس في الكسْب وممارسة الحياة ؟ أَمْ هُوَ الشُّعَور بالخوْفِ من الفراغ لغيابِ الْعَمِّ عن البْيتِ والدار ...

لعلَّ الدافع بَعْضها ، أوْ لعلَّها كُلّها مجتمعة .

ونعُودُ إلى الوقائع ...

فقد حاول « أبوطالبٍ » بكُلّ وسيلةٍ أَنْ يُثْني أَبْن أخيه عن رغبته تِلْك، لِأَن سِنَّهُ آنذاك لا تسْمَحُ .. ولا تحْتمل شقاءَ السَّفَر البعيد الْمُضْني ..

فبكى « محمد » .. ، بُكاءً مُرّاً ...

ولقد كانَتْ دُمُوعُهُ عند « أبي طالبٍ » أَغْلى من كُلّ شيْءٍ ... ، فوافق بعد أن تَرَدَّد كثيراً ... ، ونَزَل عنِد رغبةِ الطّفْل اليتيم ...

[الْمُظَلَّلُ بِالْغمام]

وخَرَج « محمد » – ﷺ – مع عمّه في قافلةِ « قُرَيْش » ، المتجهة إلى « دَمَشْق » – الشام – ، التى تعْلُو بها الرَّوابي والكُثْبان ، وتَنْزِلُ بها الوِدْيان والْقيعان .

وكانت مدينة « بُصرى » – من أَرْض حِمْوران » – إحدى المحطّات الرئيسية ، يَنزلون بها للراحة بعْض الْوَقْت، إستعْداداً لِدُخولِ دِمشْق ...

وكان من عادَةِ بَعْض الْقُرشيِّين المسافرين أَنْ يُعَرِّجُوا عند « بُصْرى » على راهبٍ هناك ، يُقيم في صَوْمعةٍ له ، يُدْعى « بُحَيْرا » ، وهو من كبار أَحْبار النصارى ، يُحادثونه ويُحادِثهُم ، ويَسْمَعُون إليْه في أُمورٍ تهُمهم وتشُدّ انتباههم ...

فلما كان نزولهم هذه المرّة ، قريباً من صَوْمعته ، حَسْب العادة ، رأى أَمْراً يَدْعُو إلى الْعَجب ... ، أثار فِي نَفْسِهِ ذكرياتٍ ومعلوماتٍ وإِرْهاصات ... ، ثم أخذ يُراجع نَفْسه ...

لقد رأى غمامةً تُظَلِّل فوْق رِحالِهِم ... ، جِمالِهِم وخيامِهِم ... ، وفي غَيْر أوانِها وزمانها ... ، إذ كان الوقْتُ صَيْفاً ... !!

ودعاهُم إلى طعامِهِ ومائِدتِهِ ، وأَوْلَمَ لهم ، وطلب إِلَيْهم أَ يَحْضروا كُلّهم من بدون آسْتثْناء ...

فحضروا جميعاً ، عداً « محمداً » – ﷺ – ، إذ آثَرَ البقاء في الرِّحال بَسبَبِ صِغَرِ سِنّه ، من ناحية ، وللحراسة من ناحيةٍ أُخْرى ...

فلّما دَخَلُوا على « بُحَيْرا » ... ، وآجْتَمعُوا عِنْده ، وبقيت الغمامَةُ حَيْثُ هي ، سَأَلَهُم إن كانُوا حَضُروا جميعاً ، فقالوا :

ـــ نَعَم ... ، عدا أحد الْغِلْمان ، هو « محمد بن عَبْد الله » – ابن أخي « أبي طالبٍ » – ، فطلب « بُحَيْرا » إلى « أبي طالبٍ » أَنْ يَذْهب ويَأْتي بآبن أخيه ، ليكْتمل عقد الْجَمعْ ، ويَحَضُر الوليمة معهم .

فقام « أبوطالب » وذَهَب إلى حَيْث الرِّحال ، وعاد بآبْن أخيه ... وحين تحرَّك « ﷺ » من مكانِهِ بأتِّجاه صَوْمعة « بُحَيْرا » تَحرَّكتْ الْعمامة ... ، فَوْقه تُظلِّله ... ، وفَطِنَ « بُحَيْرا » لِمغْزى ذلك ومعناه....

وحين وَصَلَ ودخَلَ ، أخذ « بُحَيْرا » ينفحَّصه مليّاً دُونَ أن يُشْعِرَ الْقَوْم بذلك ، ثُمّ دار حَوْله أَكْثر من مرَّةٍ يُريدُ أن يتبيَّن خاتَمَ النُّبُوَّة الذي بَيْن كتفيْه ﷺ ، والذي قَرَأ عَنْه « بُحَيْرا » ... ودعاهُ ...

فلمّا وَثِقَ من ذلك قال لِـ « أبي طالب » :

ـــ ياشَيْخَ « بني هاشم » إن لآبن أَخيك هذا شَأْناً ... فآحْتَفِظ به !!!

ونَزَلَتْ كلماتُ « بُحَيْرا » من قلْب وعقْل « أبي طالبٍ » مْنزِلاً مُباركاً ودقيقاً فآزداد حِرصُهُ على « محمد » وازدادَتْ رعايته له ، وتعلُّقه بِهِ ، وحدْبَهُ عليه .

ثم إن القافلة أَتَمَّتْ رِحْلَتَها ... ونَزَلَتْ « دِمشْق » في ضاحيتها ، فباعت واشْتَرتْ ، ثُمّ آبَتْ من حَيْثُ خرجَتْ .

[الأعْتمـادُ على النَّفْس]

بعد ذلك ، أخذ رسُول الله « ﷺ » يَشُقُّ طريقه في الحياة ، في محاولةِ الاعْتماد على النَّفْسِ لكَسْبِ الْعَيْش ، رغم آسْتمرارِهِ في بَيْتِ عَمِّه « أبي طالبٍ » ... واحداً من أفراد الأُسْرة ... ، ويَبْدو أن الْعَمَّ الرقيق الحال ... ، الكثير الْعِيال .. ، قد ساعَدَ ابن أخيه على هذا النَّهج وشجَّعه ، لا ضنّاً بِهِ

أو ضيقاً مِنه ... أوْ بُخْلاً عليه ... ، بل بَعْثاً لأصالة الرُّجولةِ المبكّرة في نَفْس الفتى الأَبيِّ الطامِحْ ... ! .

وبدأ « عليه الصلاة والسلام » – رحْلة العمل والكسْب ، فَعَمِل أوّل ما عَمِلَ راعياً لِأغْنام بعض القرشيّين ، مُقابلَ حِصَّةٍ معْلومة ، وأجْر بسيطٍ محدود .

وكان – كما عَهِدْناهُ من قَبْل – غايةً في الْأمانةِ والصِّدْق ، والْعِفَّة والطّهارَة ، لا يميل إلى لهْو الشّباب وعَبَثِهِم ، ويَنْفُرُ عن ذلك كُلّ النّفور ، فبدا عَلَماً بَيْن الناس في الاستقامة وسُمُوّ الْخُلُق .

وحين شَبَّ أكْثر ، وآسْتوى عُودُهُ ، تكرَّرتْ رِحْلاتُهُ إلى الشام ...

وفي ذات مرَّةٍ آنْخَرَطَ في رِحْلةٍ قد ساهَمَتْ فيها « خديجة » بِنَتُ خُوَيْلِدٍ » بمالٍ كثير ، وقِسْط وفير ...

وكانت « خديجة » سيِّدة ثَرِيَّة غنيَّة ، ذات حَسَبٍ ونَسَب ، مَشْهورة في « قريش » كُلّها ، وعلى جانب كبيرٍ من الْأدَبِ وحُسْنِ السُّمْعةِ وبُعْد الصيت ...

وكان وكيلها على مالها وتجارتها في مُعْظم الرحلات غُلام لها يُدْعى « مَيْسَرَة » ، يُدير أعمالها ويُشْرِف على الْبَيْع والشِّراء ... ،

وببرَكةِ رسُول الله « ﷺ » ، و أمانتِهِ ... ، وحذْقِهِ ... ، رَبِحَتْ تجارة « خديجة » في تلْك الرّحْلة بالذات رِبْحاً لم تَعْهَدْهُ من قَبْل !!! ، فسألَتْ غلامها « مَيْسرة » مُسْتَفْسِرَةً مُسْتَوْضِحَةً ... ، فَأخْبَرها بِأنَّ الْأمين « محمد بن عبدالله » كان معهم ، وتولّى عَنْه عمليَّة الْعَرْض والمساومة والبيْع ... ، ولقد أَقْبَلَ الناسُ عَلَيْه إقبالاً مُنْقطع النّظير .. ، مِمّا يَدْعو إلى الدّهشة والْعَجَب .. ، فكان هذا الرِّبْح والمْغْنَم .. ، من غيْر بَخْسٍ ولا ظُلْم .

[الإعجابُ وَالزَّواج]

استمعت « خديجة بنت خوَيْلد » بكُل أحاسيسها ومشاعِرِها ، وبقلْبها وعقلها إلى ما قاله غُلامُها « مَيْسرة » ...

وكانَتْ تَعْرِف عن الأمين « محمد بن عَبْد الله » بَعْض الأُمُور ، تَسْمعها من هُنا وهناك فَتَعَجَبُ بِه ، ولكنها الْيَوم أشد أعجاباً وآنْجذاباً ...

وكانت – رضي الله عنها – قد تزوْجَتْ من قَبْل ، وتُوفِّي عنها زُوْجها ...

وتحرَّكت عوامل ذاتها لِتَدْخلُ في تجربةٍ زوجيّةٍ جديدةٍ تكُون تعْويضاً لها عن سابِقِ شقائها وتعاستها ، خصوصاً مع زَوْجٍ لابُدَّ وأنْ تهنأ معه الآن وتَسْعد ...

ولكن .. كيْف السبيل إلى ذلك ... وهُو لم يَطلبها للزواج ... !

فهل يكونُ ما داعَبَ خيالها مُجَرَّد حُلُمٍ عابر ... ، أَمْ يُمْكن تحقيقه ؟؟

إن حياءهاكأُنْثى ، وهي من ربّاتِ الصَّوْنِ والعفاف ، وسيدة مَرْموقةٍ في « قريش » ، يأْبى عليها كُلّ ذلك أن تُباشر الأْمْر وتواجهه بصراحةٍ مَكشُوفة ...

ودبَّرتِ الأْمْر ... مازِجةً بيْن رغبتها وكبْريائها ... ، في حِكْمَةٍ وَدِقّة .

إذ أَرسَلَتْ إحدى قريباتها تَسْتطْلِعُ لها من طرف خفِيٍّ تجاوب « محمدٍ » ... ، وكان – عليه الصلاة والسلام – قد بَلَغَ الخامسة والعشرين من عُمْرِهِ الشريف .

أَتَتْهُ السيِّدةُ تَقُول :

— لقد آن لَكَ يا « محمد » أن تَتزوَّج ...

فقال « ﷺ » :

— ومن أَيْن لي مئونة الزَّواج ونفقاتِ الأُسْرة .. ؟!

فقالت له :

فإذا كُفِيتَ ذلك ، وتوفَّر لَكَ من غَيْر جُهدٍ مِنْك .. فماذا تقول ؟

فقال :

— كيْف ؟ ومن أَيْن ؟

قالت :

— « خديجة بنت خُوَيْلد » ... ذات الحسب والنَّسب ، والْخُلُق الرفيع ، والمال والثَّروة ... فَسَكت « عليه الصلاة والسلام » قليلاً ، ثم قال :

— وهَلْ لها رَغبَةٌ فِيَّ ؟

قالت :

— نعم ...

قال :

على بركةِ الله .

وتمَّتِ الخطبة ، وحَضَرَ عَنْه عمُّه « أبو طالبِ » ، وكذلك عمّاهُ « العبّاسُ » و« حَمْزَة » — رضي الله عنهما — ، كما حَضَرها من جانِبِ « خديجة » ابن عمّها « وَرَقةُ بن نوْفل » ، الذي كان من شخصيّات « قُرَيْش » البارزة ، علْماً وفَضْلاً ... ، كما كان من المتحنّفين الذين كَرِهُوا ما عليه قومهم من عبادة الأصنام ، وسُوء السُّلُوك الاجتماعيّ في ممارسة ألْوانٍ وأنْماطٍ من الحياة ، كُلّها ضارٌّ وفاسد ... ، ولقد قيل عَنْ وَرَقة « أنّه كان يميل إلى النَّصْرانية » كدينٍ سماوي ، أوْ تَنصَّر .

وهكـذا ...

تم زواج رسُول الله « محمد بن عبدالله » - ﷺ - من « خديجة بنت خُوَيْلد » ، فكان زواج عقْلٍ راجحٍ إلىَ عَقْلٍ راجح ، وخُلُقٍ كريم إلى خُلُق كريم .

وبدأ « علية الصلاة والسلام » حياةً جديدة ... ، أُخَذَ في إدارة شئون ثَروةِ « خديجة » الطائلة ، وتولّى المهمَّة بِتَفْويضٍ منها وثقة ، وأثْبَتَ كفاءَته ومقدرته .

وهَنئَ كُلُّ منهما بالآخر ، وسَعد به أيّما سعادة ، ومضتْ بهما سفينة الحياةِ في إيقاع هادىء لاتُعكّر صَفْوَهُ مُوْجَةُ نزاع أَوْ ريحُ خصومةٍ وشجار .

[أَوْلادُهُ - ﷺ - من « خديجة »]

تتابع حَمْل « خديجة » .. وولادتها .. ، فكان لها من البناتِ : « زيْنب » و« رُقَيّة » و« أُمّ كلثوم » و« فاطمة » ، وأما الْبُنون فقد ماتُوا جميعاً وهم في أشْهُر حياتهم الأُولى ، هُم : « القاسم » - وَبِهِ كان يُكنّى - ، و« الطاهر » و« عبدالله » .

في تِلْك الفترة الزمنية من حياتِهِ « ﷺ » كان بَيْن شاغلين : قيامُهُ على شئون الأُسْرة ، فكان بحقٍ وصدْقٍ أباً مثالياً ، ورَبُّ أُسْرَةٍ يرعاها أفضل الرعاية ، يدبّر شئونها ، ويديرُ أمورها ، ويُسْبغ على جميع أفرادها من خالِص حنانِهِ وعَطْفه وحُبّه ..

وأمّا الشاغل الثاني فَهُو الوضْع الإجتماعي والعقائدي السائد في المجتمع الجاهلي .. الّذِي عليْه قومه ، من عبادةٍ للأَوْثان والتردّي في الإسْفاف الأخلاقي من خمْرٍ ... ومَيْسرٍ ... وزنا ... وَرِبا ... ووأْدٍ للبناتِ .. وغير ذلك .

فكان « ﷺ » يَنْفر من كُلّ ذلك ... ولا يستسيغُه ... ، فَيَنْصرف إلى التأمُّل والتفكُّر والتدبُّر .. ، والعُزْلة في بَعْض الأحيان ...

وفي نفس الوقت ، كان « ﷺ » مَوْضع احترام كُلّ الناس وتقديرهم .. ، حتى الكبار منهم والسّادة ، يُعَظمون رَأيه ، ويقدّسُون كلمته ، ويروْن فيه الحكمة البالغة والحكْم السديد الصائب ؛ الذي لا يزيغ ويلْتوي .

* * *

[رضيناه « الأمين » حَكَماً ...]

حَدَثَ في بَعْض السنين أنْ تَهدَّمتْ جُدْران « الكعبة المشرّفة » من جرّاء سَيْلٍ غزير ... ، وحين أرادَتْ « قريش » إعادَة بنائها ورَفْع جُدْرانها ، وشمّرت عن ساعِدِ الْجِدّ ، ومضَتْ قُدُماً في الْعَمل ... ، ووصَلُوا في البناءِ إلى مَوْضِع « الحجر الأسود » ... ، تنازعُوا وأختلفُوا فيمن يكون لهُ شَرَف ذلك .. ، وتطوَّر نزاعُهُم إلى حد الاسْتِنْفار ، وسلِّ السُّيوف ...

لكنَّ أَحَدَهم قال لهُم ناصحِاً :

— على رسْلكم أيُّها الناس ... وَاحْقنوا دماءَكم ... ، مارَأيُكُم أنْ نُحكِّم في خلافنا هذا أوَّل داخلٍ عَلَيْنا من هذه الجهة ؟

وأَشارَ إلى جهةٍ مُعَيّنة في الفناءِ المحيط بالكعبة ...

فوافَقُوا جميعاً .

وَلِأَمْرٍ قدّره الله وقضاه ، كان أوَّل داخلٍ عَلَيْهم من تِلْك الناحية رسُول الله ﷺ ، فقالُوا مُبْتهجين فَرِحين :

— هذا هُوَ « الأمين » ... رضينا بِهِ حكماً .

وعُرِض مَوْضوع الخلاف والشّقاق بَيْنهم على « الأمين » — ﷺ — .

ولمْ يَطُلْ تفكيره في الْحَلّ السليم الذي يُرْضي جميع الأطراف ،

ويحْجب دماء الناس وأرْواحهم ... ، فقام – عليه الصلاة والسّلام – بِبَسْطِ ردائِهِ ، ووضْع « الحجر الأسود » في وَسَطِهِ ، وطلب إلى زعماء القبائل ورؤساء العشائر أنْ يُمسكُوا بأطراف الرداء ويرفعوه ... ، فلّما قارَبُوا مكان « الحجر » من « الكعْبة » تناوَله بيده الشريفة وأعادَهُ إلى مكانِهِ ...

وبهذا التصرُّف الحكيم يكون الجميع قد ساهمُوا في الْعَمَل ، ونالُوا الْشَرف .. ، وحُلَّ النِّزاع ، وحُسِمَ المؤقف ...

وتركهم رسُولُ الله ﷺ وعادَ إلى دارِهِ ... ، وكان يساورُهُ بعض الْقَلَق على « خديجة » الحامل ، التي تَركها مع القابلةِ تُعاني آلام الوضْع ...

وفي الطريق لَقِيَ ﷺ من يُبَشّرُهُ بمولودةٍ رابعة ... ، فَسُرّي عنه ، وأسْرع في مَشْيهِ يُبادِرُ الخطوات ، وأَقْبَلَ على « خديجة » يواسيها ، ويخفف من آلامها ، بالْبَسْمةِ الرقيقة والكلمة الطيبة ... ، ومن ثُمّ ... سمّى المُولودة الجديدة « فاطمة » ...

الفصــل الثـاني

« مُحَـمَدٌ »

[– رسُـولُ الله –]

عند بلوغ رسُولِ الله « ﷺ » سِنَّ الأربعين كان قد تَكَوَّن خَلْقاً نفسيّاً وذاتياً جديداً ... ، عنوانه الصّفاء والشفافية ، ونزوعٌ عن مادّيّةِ الأرض إلى روحانِيَة السماء ...

لقد أكْثَرَ من الانقطاع والعُزْلة ، وأمْعَنَ في التدبُّر والتأمُّل ... ، والخلْوةِ في غارِ « حراء » ... ، في جَبَل يَقَع في ضاحيةٍ من ضواحي « مكة » – أمّ القُرى – ، ويَقضي هُناك أيّاماً وليالي ...

وهذه العُزْلة كانت تُعْرفُ بـ « التَّحَنُّث » ... ، وكان يُمارسُها بَعْض الّذين هَجَرُوا مجتمعهم الجاهلىّ ، ويَرَوْنَ في أنْفُسِهم آستعْداداً رُوحياً لِأمْرٍ عظيم ... ، كانت إرهاصاتُهُ تَدُورُ على بَعْضِ الألْسِنَة ... ، وهُوَ آقترابُ ظهور نبيٍّ من العَرَب ... ، استناداً لما كان يُردِّده بعض أهْل الكُتُبِ السماويّةِ ، أهْل « التوارة » وأهل « الإنجيل » ...

لكنّ الله أعْلم حَيْثُ يَجْعل رسالَته ... ، ولقد قَدَّرها سُبْحانَهُ مُنْذُ الأزَل بِعلْمِهِ المحيط في « محمد بن عبدالله * – صلوات الله وسلامُهُ عليه – .

[لَيْلَةُ القَدْرِ ... لِيْلَةُ « محمد » – ﷺ –]

مرَّ « عليه الصلاة والسلام » قبْل لَيْلتِهِ العظيمة ... ليْلة القَدْر .. التي

بُشّر فيها بالنّبُوّة ، وحُمِّل فيها الرسالة ، وأُنْزل عليه فيها القرآن الكريم ... ، بأَدْوارٍ كثيرةٍ من الإعْداد .. ، كان أَهمُّها دَوْر الدُّنُوّ والتقارُب .. ، إذ انْعَكس على ذاتِهِ الشفيفة بِوَهجٍ شديدٍ من الإشراق في الْقلْب .. والرُّوح ... والْوَجْه ...

يُحدِّثُنا بذلك « ﷺ » ... ، ويحْكي لنا بأنّه كان يتراءى له بِأَنَّ الجمادات من حَجَرٍ وشَجَرٍ كانت تُسلِّم عليه بالنّبُوّة .

ثم كانَتْ ليلتُه العظيمة ، ليلة الْقَدْر ... ، ليلة السابع والْعِشرين من شهر « رمضان » ، في ذلك العالم ،

فبيْنا هُوّ في تَحنُّثِهِ في « غار حراء » ، على عادتِهِ ، وقد بَلَغَ من الصّفاء النّفْسي والوجداني أَسْمى مكانةٍ وأَرْفع مَنْزلةٍ ، أتاهُ الروح الأمين.« جبريل » — عليه السلام — في ضغطةٍ نورانية عنيفةٍ شديدة ، لايطيقُها بَشَر ، لِيقُول له : اقْرأ ...

وما كان رسُول الله « ﷺ » — محمد بن عبدالله » قارئاً ولا كاتباً ... ، فهُوَ النبيُّ الأُمّي ...

فقال في لهْفَةٍ ... ورجْفةٍ ، وعَرَقٍ يتَصبّبُ من جبهتِهِ وَوَجْهِهِ ... :

— ما أنا بقارئ !

فعاوَدَه « جبريل » — عليه السلام — للمرّة الثانية والثالثة ، وفي الثالثة قال :

﴿ اقْرأ بآسْم ربِّك الذي خَلَق * خَلَق الإنسانَ من عَلَق * إقْرأ وربُّك الأكْرم * الّذي علَّم بالْقَلَم * علَّم الإنسانَ ما لم يَعْلم ﴾

ثُمّ آنصَرَف عنه .

ولم يُطِقْ رسُول الله « ﷺ » البقاءَ في مكانِهِ ... في « غار حِراء » ... ، وأَحَسَّ بوحْشةٍ ورهْبَةٍ ... وكَلَلٍ ... ، فعادَ إلى بَيْتِهِ وأَهْلِهِ ،

وأوى إلى فراشِهِ ، وهُوَ يقول لِزوجتِهِ « خديجة » :

— دثّروني ... دَثّروني ... (غطّوني ..)

إذْ كان يَرْتَجف ويَقْشَعِرّ ...

وبعْد أنِ آسْتَقَرَّ وهدأ ... ، وشَعَر الطمأنينة في بدنِهِ ونَفْسِهِ ، عاوَدَهُ « جبريل » — عليه السلام — بالضَّغْط النُّوراني ... ، يقول لهُ :

﴿ ياأيُّها المُدَّثِرْ * قُمْ فَأَنْذِر * وَرَبَّكَ فكبِّرْ * وثيابَكَ فَطَهِّر * والرِّجْزَ فآهْجُر ﴾

وتَصبَّب فيهِ العَرَق ثانيَةً ، وعاوَدَتْه الرَّجْفة ...

ثم عَرَفَتْ « خديجة » — الزَّوْجة الفاضلة — مابِهِ ، ومايَأْتِيهِ ... ، فلم تَزِدْهُ ذُعْراً ولا خشْيةً ، بل هَدّأت روعه ، وخففت قَلَقه ...

وقصَدت ابن عمّها « وَرَقة بن نوْفل » ، تُنبئه بالْخَبَر ، وتَستَفْتيه في الأَمْر ، لعلّها تجد عِنْده بعْض التَّفسير والبيان ، فقال لها « وَرَقة » :

— إنّه — والله — النامُوس الأكبر الذي كان يأتي نَبِيَّ الله « موسى » ...

[لا يخْزيك الله ...]

وعادَتْ « خديجة » — رضي الله عنها — وهي تحْمل في قلْبها وعقْلها من الأفكار والمعاني ماينوءُ بِحَمْلِهِ العُصْبة أولي القوَّة ... من العلماء والحكماء والمفكرين ... ، وكذلك الأحاسيس والمشاعر المختلجة المتشابكة .. ؛

لم تَتَزَعْزع .. ولم تَضْطرب ... ، وظلّت رابطة الجأْش عظيمة الثّقة ...

وأَقْبَلَتْ على الزَّوْج الرسول — ﷺ — بِوَجْهٍ باسِمٍ بشُوش ، ونَفْسٍ فيّاضةٍ بالعطف والحُبّ .. ، وكلماتٍ تَقْطر عُذوبَةً وتَفُوق الْعَسَل والشَّهْد

حلاوة ، لِتنْزِل في قلْب النبي ونَفْسِه مَنْزلا أميناً كريماً مُسْتقِرّاً ...

وقالت :

ــ [ياآبن عمّ – والله – لايُخْزيك الله أبَداً ، إنّك لَتحْمِلُ الْكَلّ ، وتَقْري الضَّيْفَ ، وتُكسِبُ المعدوم ، وتُعين على النّوائب ...]

[الْمُــزَّمّل ...]

وغاب الرُّوحُ الأمينُ « جبريل » – عليه السلام – أيّاماً ... ، ثُمّ عادَ ليحمِل وَحْياً جديداً ، وآيات بيِّناتٍ ... ،

فلّما آنْفصَلَ عَنْه ، وقد آشْتَدَّتْ على رسُولِ الله ﷺ الرّجْفةُ والْقَشعريرة ، قال لِـ « خديجة » – رضي الله عنها – :

ــ زَمِّلُوني ... زَمِّلُوني ...

غَيْر أنَّ « جبريل » – عليه السّلام – لم يَتَأَخّر عنه هذه المرّة ، فعاوَدَه لِيَنْقُلَ إليه قوْل الله تعالى :

﴿ يا أيُّها الْمُزَّمِّل * قُم اللّيْل إلاّ قليلا * نِصْفَهُ أو آنْقصْ مِنه قليلاً * أوْ زِدْ عليه وَرَتّل الْقُرْآن ترتيلا * إنّا سَنُلْقي عليك قوْلاً ثقيلا ﴾ .

(قُمْ !!!) و(قولاً ثقيلاً !!!)

إذاً لا نَوْم ولا آسْتِرْخاء ولا راحة ... ، بَلْ إبْلاغ وَجهاد ... ، وحمْل لِأعْباء الرسالة ... ، ودعْوة الناس إلى الله الحقّ ...

وقامَ « عليه الصلاة والسّلام » بَعْد أنْ ذهَبَتْ عَنْه دورة الوحْي ، فقال لِـ « خديجة » .. الزوجة الوفيّة المخلصة ، :

---

(١) زمّلوني : بمعنى دثّروني ، أي غطّوني ، ولكن بأغطية أكثر دِفئاً .

ــ لقد مضى أوانُ الراحة يا « خديجة » .. !

ولقد لبَّتْ – رضي الله عنها – نداءَ الإيمان ، ودَعْوة الزّوْج الرّسُول ، فصَدّقَتْ بكلمات رَبِّها ، وكانت من القانتين .

* * *

[أوّلُ النّاس إسْــلاماً]

ووفاءً من رسُول الله « ﷺ » لِعَمِّهِ « أبي طالبٍ » .. الذي كفله ورعاه ، بعد أُمِّه « آمنة » وجده « أبي طالب » ... ، والذي تَعَّهدَهُ طِفْلاً وشاباً ورعاهُ حقّ الرعاية ... ، وأحبَّه كُلّ الْحُبّ ...

ووفاءً من رسُول الله « ﷺ » لـ « أبي طالبٍ » الذي كان ينُوءُ بِعِبْء كثرة الأوْلاد ، وقِلّةِ الموارد .. ،

آسْتَخْلَصَ « عليه الصلاة والسلام » – « عَلياً » – يُربَيه عنده في بْيتِهِ ، ويُنْفق عليه وَيتعهَّده ... ، تخفيفاً عن كاهل « أبي طالب » .

وفَتَحَ « عليّ » عينه ... ، وقلبه وعَقْله ... على جوّ عابقٍ بالْوَحْي الإلٰهي ، زاخرً بالأنوار الْقُدْسيَّة المتَنَزِّلة على رسُول الله ... ، وتلقّى كلمة الإيمان والإسلام ... فآمَنَ وآتَبَعَ .. ، ولم يكُن قد سَجَد لِصَنَمٍ أوْ وَثَنٍ .. ، فَكَرَّم الله وَجْهَهُ وفِكَرَهُ وَحِسَّهُ عن كُل دَنَسٍ جاهلي .

أما « زيْد بن حارثة » – موْلى « خديجة » – رضي الله عنها – ، فقد رأى حركاتٍ غَيْر عاديَّةٍ في جَوّ الأُسْرة ... وفي مُحيط البيْت ... ، ثُمَّ رأى تحرُّكاتٍ لم يفهّمها بادئ الأمْر ... ، فلما آستَفْسَرَ عنها ، وبُيِّنَتْ له ... ، وعَرَف أبْعادها ودلالاتها .، آنخرط طائِعاً مُخْتاراً في الرَّكْب ..

وعندما حدَّث رسُول الله « ﷺ » صديقه ،وصفيه من الناس « أبابكْر بن أبي قُحافَةَ » في أَمْر النُبُوّةِ والإسلام ... صَدَّقَهُ وآمن بِهِ وآتَّبَعَهُ من غَيْر تَردُّدٍ لا تعثُّرٍ ولا تلَكُّؤٍ .

فكان هؤلاء النَّفر الكرام أوّل الناس إسلاماً وإيماناً – رضي الله عَنْهُم وأرضاهم –

[الْمِحْنَــةُ في الله]

تُحدِّثنا – ياولدي العزيز – كُتُب السِّيرة عن المرْحلةِ الأولى من الدعوة فَتَصِفُها بـ « السِّرِّية » .. ، وأَوَدُّ أن أوضّح لك ذلك ، إذِ المقصود هُوَ سرِّيَّةُ المكان الذي كان يجتمعُ فيه بأَصْحابِهِ وأتباعِهِ القلائل ... ، لِأَنَّه « ﷺ » قد عُرِف عنه ... وآشتهر أَيْضاً .. ، بأَنَّه يَدْعو إلى دينٍ جديد .. يَنْبُذُ عبادة الأَصنام وتقديسها ، ثم .. إخلاص القُلوُب والنفوس والعقول لله وحده ، الخالق العظيم .. ، ربُّ السماوات والأرض وما فيهنّ ، كما يدعو إلى تَطْهير المجتمع من أسباب الفسادِ والانحلال .. ، ومن كل رذيلة .

فآمَنَ بِهِ البْعض واتّبعوه ، ولكنَّهُم كانُوا « يُخْفون » إسلامهم وإيمانهم ، ويلتقون بِهِ « ﷺ » في دار « الأَرْقم بن أبي الأَرْقم » ... سِرّاً .

فإذا ما اكْتُشِفَ أَمْر واحِدٍ مِنْهُم تَعرَّض لِأَقْسى ... وأَقْصى صُنوف العذاب والفتْنة ، كيْ يَرْتَدَّ عن دينِ « محمَدٍ » – ﷺ – ، ويكْفُر بالله عَزَ وَجَلّ ، ويعود إلى عبادة الآلهة من الأَحْجار الصَّمّاء ... ، التي لا تَسْمعُ لا تَشْفع ، ولا تَضرُّ ولا تَنْفع .

كما حَدَث لِـ « ياسرٍ » وزوْجتِهِ « سُمَيّة » وولدهما « عمّار » ... ، أوّل المعذبين والمُمْتحنين في الله ...

ولقد مات الأبوان شهيديْن تحت وطْأة التعذيب !!! ، ولم يُتْرك

« عمّار » حتّى نال من رسُول الله « ﷺ » ، وأَسْمَع الكافرين الذين كانوا يُعذّبونَهُ مايُرضيهم ... ، ولماجاء إلى رسُولِ الله « ﷺ » باكياً ... خائفاً ... ، سَأَلَهُ النبيّ – عليه السلام – : كيْف تَجِدُ قلْبَكَ يا « عمّار » !؟ فقال : – مُطْمئِنٌّ بالإيمان ... ، وفيه – ياولدي العزيز – نَزَل قوْل الله تعالى :

﴿ إلاّ مَنْ أُكْرِهَ وقلْبه مُطْمِئِنٌ بالإيمان ﴾ .

ولقد كان – عليه الصلاة والسلام – يَمُرُّ بـ « آل ياسرٍ » وهُم يعذبون ، فلا يَسْتطيع أَنْ يَدْفَعَ عَنْهُم شيْئا سوى أن يُعزّيهم بِقَوْله : [**أَبْشِروا « آل ياسر » فإنّ موْعِدَكُم الجنّة**] .

وكذلك تعرّض « بلالُ بن رباحٍ » – الحبشي – العَبْد الرقيق ، على يَدِ سيِّده « أُمَيَّة بن خَلَفِ » ، ويَدِ « أبي جْهل » لأَشِدِّ الفتْنة والمحنة ... ، لكنَّه ظَلَّ صامداً قَوِيّاً في قلْبه وروحِهِ ...

دَخَل «بلالٌ» في الإسلام عن طريق « أبي بكْر » ، فقد كانا صديقيْن حميميْن ... ، فلّما عَلِمَ بِهِ سيِّده « أُميّة » ، ضَرَبَهُ ... وحَبَسَهُ ... وجَوَّعه ... ، ليكْفر بـ « محمد » ، فأبى وآمْتَنَع ...

وأَشارَ « أبوجَهْل » على « أُميَّة » أَنْ يزيد في عذاب « بلالٍ » ...

فكان يأْخذه إلى بَطْحاءِ « مكة » مقيّداً بالسلاسل .. ، ثُمّ يوسّده الأَرْض والرِّمال الساخِنَةَ اللاهبة ، ويَضَعُ فوْق صَدْرِهِ الصَّخْرة العظيمة ، ويَنْهال عليه هُو وزبانيته بالسِّياط ... ، و« أبوجَهْل » معه ، يُساعِدُهُ في آبْتكار أَلْوانِ الإيذاء ...

لكنّهم لم يَنَالُوا من « بلالٍ » أبدا ... ، ولم يَفْلحِوُا في رَدِّهِ عن الإيمان إلى الكُفْر ، وعن الإسلام إلى الشّرْك .

حتّى مرَّ بهم « أبوبكْر » .. ، ورأى ماعليه صديقه وصاحِبُهُ من العذاب والأذى والضّرر .. ، فآشْتراهُ من « أُمَّية » وأَعْتَقَهُ حُرّاً لِوَجْه الله تعالى .

[الْهِجْرَةُ إلى « الحبشة »]

إزْداد عَدَدُ المسلمين ، وآزداد أذى المشركين لهم ...

وإزاء هذه الحال ، طلب رسُول الله ﷺ من أصْحابه أن يهاجروا إلى الله بدينهم ، ويَخْرجُوا من « مكّة » إلى أرْضِ « الحبشة » ، عند « النجاشيّ » – ملكها – ، الذي سوْف يُرحِّب بِهِم ، ويجدون عِنْده الأَمْن والأستقْرار ؛

* * *

فهاجَرَ من المسلمين قُرابة السبعين نَفَراً بِأَهْليهم .. ، وكان من بَيْنهم :

« عثمان بن عفّان » – صِهْر النبيّ ﷺ ، الذي تَزوَّجَ من « رُقَيَّة » و« الزُبَيْر بن العوّام » ، و« جَعْفَرُ بن أبي طالب » ... وغيرهم .

وأقامُوا هناك في ضيافةِ « النجاشيّ » الذي أكْرَم وِفادَتَهم ، وأَمَّنَهُم .. ، ولقد حاوَلَتْ « قريش » إفْساد المقام عَلَيْهم ، فأَرْسَلَتْ « عمرو بن العاص » في هدايا إلى الملك ، وليطْلَبَ إليه أن يُسْلِّمهُم طائفة المارقين عن دين الآباء والأجداد !!!

ودَسَّ « عمرو » على المسلمين عند « النّجاشي » وآفْترى عليهم بأَنّهم يَقُولون في « عيسى » – عليه السلام – قوْلاً كبيرا ... ، فلما طلب إليْهم أَنْ يعرِّفُوهُ الحقيقة تكلَّم باسمهم « جَعْفر بن أبي طالبِ » – رضى الله عنه – ، ووضَّحَ للنجاشي الأمر ، جليّاً ناصعاً ، لا يقبل تأْويلاً ولا تزْويراً ، سواءً مايتعلّق بالإسلام ، أو عمَّا يَقُولُهُ القرآن بحقِّ « عيسى » – عليه السَّلام – .

وكان من أمْرِ « النجاشيّ » بعد أن آستمع إلى « جَعَفر » وهو يتْلو القرآن أنْ بكى .. ، ثم رَدَّ « عمْراً » ومَنْ معه مَذْمومين مَدْحُورين .

* * *

[إسلام « الفاروق » عَوْدة بُعْض المهاجرين]

كان إسلام سيدنا « عمر بن الخطاب » – رضي الله عنه – فَتْحاً ... ، ولقد لقَّبهُ رسُولُ الله ﷺ مُنْذُ أنْ أسلم ب « الفاروق » ، لِأَن الله تعالى فَرَقَ بِهِ بَيْن الحقّ والباطل .

والْفَتْحُ في إسلام « عمر » – ياولدي العزيز – من ناحيتيْن : الْأُولى خُرُوج المسلمين من دار « الْأَرْقم بن أبي الْأَرْقم » ، يعني خروج الدَّعْوةِ من السريَّةِ إلى العلنيَّة ... !! والثانِيَةُ : عَوْدَةُ بعض المهاجرين من « الحبشة » إلى « مكة » إعتزازاً بإسلام « عُمَر » !!

وظروف إسلامِهِ – رضي الله عنه – قِصَّةٌ جديرةٌ بالرواية .

فقد كان « عمر » – قبل إسلامه – شديد الْوَطأةِ على المؤمنين ، كثير الأذى لهم ، عنيفاً في خصومةِ الإسلام وأَهْلِهِ ...

وفي ذات يَوْمٍ ... وبيْنما كان جالساً وسْط السَّادَةِ من « قريش » عند فناء « الكعبة » ، يتداولُون في أَمْر « محمد » – ﷺ – ودَعْوَتِهِ التي سفَّهَتْ آلهتهم ، وحقَّرَتْها .. ، وعابَتْ عَلَيْهم حياتهم ، وفَرَّقت مُجْتمعهم وأُسَرِهم وعائلاتهم ...

هَبَّ « عُمَر » من بَيْنهم ثائراً ... مُعْلِناً أنَّه سيقْضي على « محمد » ... ، غير عابِىءٍ بِأَيَّة نتائج .. ، ثم غادَرَهم وهو في أقصى حالاتِ الثورةِ والْغَضَب ...

وفي الطريق لَقيَهُ شخصٌ من معارِفِه فَسَأَلَهُ مُستَغْرِباً حالَـهُ وسُرْعَةَ خُطواتِهِ ... ، وشِدَّة الْحُمْرَةِ في وَجْهِهِ وعَيْنَيْه :

— إلى أَيْن يا « آبن الخطاب » .. ؟

فَأَخبره بأَنّه قاصد إلى « محمد » لِقَتْلِهِ والخلاص منه ، فقال الرَّجُل :

— عليْك بأَمْر أَهْلِكَ أَوّلاً .. !

فقال « عمر » ، وقد آشْتَدَّ هياجُهُ : ماذا تَعْني ؟

قال الرَّجُل :

— أُخْتُك « فاطمة » وزَوْجها « سعيد بن زيْد » ...

* * *

فَغَيَّر « عمر » وجْهَتَهُ ... ، وقصد إلى دار أُخْتِهِ ، وهو يرْغي ويزْبد ... ، فلمّا وقف عند باب الدار ، سَمِعَ هَيْنَمةً[1] ... ، فلبِثَ في مكانِهِ يَسْتَمِعْ ، ويُحاوِلُ أن يَفْهَمَ مايُتْلى ويُقْرأ ...

وفي داخل البيْتِ المتواضع كان « خُبّابُ بن الأَرَتِّ » يَقْرأ على « فاطمة » و« سعيدِ » مانزَل من الوحْي حديثاً ، وهو أوائل سُورةِ « طه » .

وَقَرَع « عمر » الباب ، وعلا صَوْتُهُ ...

عندئِذٍ آخْتبأ « خبّاب » ... ، ودَخَلَ « عمر » هائجاً مائجاً .. ، ثم تجادَل مع أُخْتِهِ وصِهْرِه .. ؛ ثم ... لَطَمَ « سعيداً » لَطْمَةً أَدْمَتْ وَجْهَهُ ، فقامت « فاطِمةُ » لِتَحُول بَيْن أَخيها وزوْجها ... ، لكنَّ « عمر » دَفَعَها دَفْعةً قويّة رَمَتْ بها أَرْضاً .

---

(١) الهينمة : الصّوْت الخفيّ .

لكن منظر الدّماء السائلة من وَجْهِ « سعيد » ورؤية الأُخْتِ مطروحة أَرْضاً ... أيْقَظَتْ من نَفْسِ « عمر » مانام وغفى ... ، فآستفاق إلى نفسِهِ ، وراجَعَ تَصرُّفه ... وهدأ قليلاً ، ثم قال :

ـــ ما هذه الهَيْنَمَةُ التي كُنْتُ أَسْمع ..

ومازال يُلحُّ عَلَيْهما حتى أَخرجا له الصَّحيفة ... ، ولم يَطْمئنَا إليه إلاّ بعد أَنِ آعْتذر لهُما وأَبْدى رغْبَتَهُ في الإسلام .. ، فلمّا أراد القراءَةَ ... طلبت إليْه أُخْته أن يَغْتَسِل ويتطَهَّر أَوّلاً ... ، فَفَعَلَ ... ، ثم قَرَأَ ؛

وهُنا – ياولدي العزيز – شَبَّ نُورُ الإيمان في قلْب « عمر » ضياءً مُشِعَاً ، غَيْر كاذِبٍ ولا مُخاتل .. ، ثم سأل « فاطمة » أن تَدُلَّه على مكانِ رسُولِ الله ﷺ الّذي يجتمع فيه بِأَصْحابِهِ .. ، فتردَّدت بَعْض الشيْء ... وخَشِيَتْ ... ، عندئِذٍ خَرَج « خبّابٌ » من مَخْبئِهِ وقال :

ـــ أَبْشِرْ يا « عمر » ... لقد سَمِعْتُ رسُول الله ﷺ بالأَمْسِ يَدْعُو لك بالهداية إلى الإسلام ... ثُمّ دَلَّه على دار « الأَرْقم »

[غُــرَّةُ الإسْـلام]

وبادَر « عمر » إلى دار « الأَرْقم » وقَرَع الباب ، فقام واحِدٌ من الصحابة يَنْظُرُ من خَلَلِ الباب ، ثم آرْتَدَّ فَزِعاً إلى رسُولِ الله « ﷺ » يقول :

ـــ إنّه « آبْن الخطّاب » يا رسُول الله !!!

فقال « حَمْزَة بن عبدالمطّلب » – رضي الله عنه – :

ـــ أنأذن لهُ يارسُول الله .. فإن كان جاء يُريدُ خَيْراً فَمَرْحباً بِهِ ، وإن كان جاءَ يُريدُ شَرّاً قَتَلْناهُ بِسَيْفِهِ ...

وفُتح الباب ... ودَخَلَ « عمر » ... فلما رآهُ رسُولُ الله « ﷺ » قال لأصحابِهِ :

أَبْشِروا .. لقد جاءَكُم « عُمَر » وغُرَّةُ الإسْلام بيّن عينيْه .. !!

* * *

وأَسْلَمَ « عمر » ...

وبعد أيّام قلائل ... قال « عمر » لرسُول الله «ﷺ» :

ــ يارسُولَ الله ... أَوَ لسْنا بالمسلمين ؟

قال :

ــ بلىٰ ...

فقال :

ــ أَوَ لسْنا على الحقّ ؟

قال :

ــ بلىٰ ...

فقال :

ــ فَعَلامَ إذاً نَتَستَّرُ ونَتَخفَى ؟!

* * *

مُنْذ تِلْك اللحظة – ياولدي – كانت علانية الدعوة ... ، وظُهورُ الإسلام .. ، وخَرَج رسُولُ الله « ﷺ » بالمسلمين الذين معه في الدّار ... ، في صَفَّيْن على رأْس أَحَدِهما « حَمْزة » وعلى رَأْسِ الآخر « عمر » يجوبُون طرقات « مكة » في حركةٍ أَشْبَه ماتكون بـ

« العرْض العسكريّ » !!! ، وهي إنّما تُوحي بمعنى الْقُوَّة والتحدّي في مسيرة الدَّعْوةِ إلى الله تعالى .

* * *

وَسَمِع المهاجرون إلى « الحبشة » بهذا النَّبأ .. ، فعادَ بَعْضُهُم إلى « مكة » وهُوَ يَظُنُّ أَنَّ زمان الفتْنة في الدين والْقَهْر والعذاب قد ولّى بإسلام « عُمر » .

[لَيْس بَيْنَ الله تعالى وبَيْن أَحَدٍ نَسَبٌ إلاّ التَّقْوى ...]

ثم أَوْحى الله تعالى لنبيِّه « ﷺ » :

﴿اصْدَعْ بما تُؤْمر وَأَعْرِض عن المشركين﴾

﴿ وأنذر عشيرَتَك الأَقربين ﴾

فقصد رسُول الله «ﷺ» ذات يَوْمٍ إلى جَبَل « أبي قُبَيْس » ، ووقف يُنادي النّاس ... ، ويَدْعُو « قُرَيْشاً » بِأَسْماءِ بُطُونها ... وفُرُوعها ...

فَاْجْتَمعَ إليه نَفرٌ كثير ... ، كان من بيْنِهم عمُّهُ « أَبُو لَهَبٍ » ، وآسْمُهُ « عبدالعُزّى بن عبدالمطلب » – الذي كان من أَشَدِّ الناس عداوةً لِلّه ورسُولِهِ .

فلما آجْتَمَع إليه الناسُ قال لهُم :

— [أَرَأَيْتُم لو أَنبأْتُكُم أَنّ وراءَ هذا الجبل عَدُوّاً يتربَّصُ بكُم ... أَمُصَدِّقِيَّ أَنْتُم ؟؟]

فقالوُ : ماعَهِدْنا فيك إلاّ الصِّدْق والأمانة ...

فقال لهم : [إنّي نذيرٌ لكُم بَيْن يَدَيْ عذابٍ شديد ...]

* * *

ثم أخذ « ﷺ » يَدْعُوهم إلى الله ، وتَرْك ماهُم عليْه من ضلالةٍ وكُفْر ، وجَهْلٍ وسَنَةٍ .. ، ويُحذّرهم ماحَلّ بالأُمم التي خَلَتْ من قَبْلهم من عذاب الله ، أَمْثال « عادٍ » و« ثمود » وغيرهم .

وآنْتَفَض « أَبُولَهَبٍ » من بَيْن القوْم ليرُدَّ على آبْن أَخيه ، رسُولِ الله « ﷺ » ويَقُول :

ــ تَبّاً[1] لَكَ ... أَلِهذا جَمَعْتنا ...

* * *

وتَفرَّق النّاس ...

وجاءَ الرَّدُّ الإلهيُّ على « أبي لهبٍ » من فوْق سَبْع سماواتٍ :

﴿ تَبَّتْ يد أبي لَهَبٍ وتَبَّ * ماأَغْنى عَنه مالُه وماكَسَب ﷺ سَيَصْلى ناراً ذات لَهَب * وامْرأَتُهُ حمّالة الْحطبِ * في جيدها حَبْل من مَسَدٍ ﴾

لقد جاءَ الرَّدُّ بِخُسْرانِهِ وهلاكِهِ لِشِرْكِهِ ... وظُلْمِهِ .. وبَغْيِهِ .. ، ولو كان عمَّ رسُول الله « ﷺ » ؛ وكذلك زَوْجته ... لِأَنَّها كانَتْ شديدة الأذى بلسانها ويَدِها للنبيِّ « عليه الصلاة والسلام » ، تحملُ القاذورات وتُلْقيها أمام باب دارِهِ ... وتَشْتُم ... وتسُبّ ...

* * *

[... أَوْ يُظْهِرهُ الله]

حدَّثْتُك – ياولدي – أن بَعْض المهاجرين إلى « الحبشة » ، قد عادوا إلى « مكة » عندما سمعُوا بإسلام « عمر بن الخطاب » ظنّاً مِنْهُم بِتَبدُّل الحال ،

(١) التَّبّ : الْخُسران والهلاك .

لكنَّهم وجدوا أنّ طغيان « قريش » قد عمَّ واشتَدَّ وطمى .. ، وآزداد الكافرون فُجوراً وأذى ... ، وأنهم مايزالون في نُفورهم عن الإسلام في عنادٍ وغُرورٍ

لكن صلابَةَ الإيمان في نفوس المسلمين كانَتْ أَقْوى من الظُّلْم والاستبْداد ، والْقَهْرِ والعذاب ... ، ولقد رأوا من رسُولِ الله ﷺ – قائدهم ورائدهم – ماشَدَّ أَزْرهم وقوّى من عزائمهم .

وإزاء هذا الموقف الصُّلْب الذي لايلين ، الذي واجهتْهُ قريش « من المسلمين ، تشاوُرَ زعماؤها فيما بَيْنَهُم ، وآتّفَقُوا على رَأْي ... ، وشَكَلُوا وفْداً لمقابلةِ « أبي طالبِ » ومحادثِتِهِ ، لعلَّه يُقْنع ابن أخيه « محمداً » ، ويصرفه عن دَعْوتِهِ ، ليعود التماسُك إلى « قريش » ، ووحْدة الصّف ، بعد أن هزّتْها هذه الدعوة وزلزلتْ كيانها ...

وكان « أبوطالبِ » مايزالُ على الشّرْك ، ولكنَّه كان يقف إلى جانِبِ ابن أخيه بدافعٍ من العصبيَّةِ العشائريَّة ، وكان شَيْخ « بني هاشم » ، مكرَّماً معظَّماً ... مَسْموع الكلمة والرأْي ...

فجاءَه وفد « قريش » في داره ، وعَرَضُوا عليه عُرُوضاً منها :

ــ إن كان « محمد » يُريد مُلْكاً وسُلْطاناً فإننا نملّكُه علينا ، وإن كان يُريد مالاً مَنَحْناهُ مايُريد من كريم أَمْوالنا حتى يكون أَغْنى الناس ، أو إن كان الذي يأْتيه رِئِيّاً من الْجِنّ فإنّنا نُجنِّد له الكُهّان والعرّافين ليُبرئُوهُ مِمّا هُو فيه ... ،

ثُمّ انْصَرفُوا ...

وعَرَض « أبو طالبِ » على ابن أخيه رسُولِ الله ﷺ عُروض قريشٍ ومقالتها ، وأَصْغى إليه رسُولُ الله « ﷺ » ، فلمّا انتهى قال له :

ـ [والله ياعَمّ .. لو وَضَعُوا الشّمْس في يميني ، والْقَمَرَ في يساري على أَنْ أترك هذا الأَمْر مائرَكْته ، حتى يُظْهِره الله ... أَوْ أَهْلك دونه]

وحاول الْعَمُّ المْشفِقُ على آبْن أخيه أن يُثْنيه عن عَزْمِهِ .. ، فَرَدَّ رسُول الله ﷺ ردّاً فيه استثارةٌ لعاطِفَةِ الْعَمّ ... الحبيب ... ، ثم آسْتَأْذَنَ يريد الانصراف ، فلمّا أَصْبَح عند الباب ، ناداه « أبوطالبِ » – وقد ترقْرق الدمْع في عَيْنَيْه – ثم قال له :

ـ إذْهب ياآبْن أخي وآدْعُ بما شِئْتَ ، فوالله لَنْ أُسْلِمَكَ أبداً ...

ونزلَتْ كلمات « أبي طالبِ » على قلْب النبيّ ﷺ بَرْداً وسلاماً ، وعزاءً طيّباً .

* * *

[الحصـــار وعامُ الْحُــزْن]

اتبعت « قريش » في محاربة الدَّعْوة إلى الله أكثر من أسلوب ، ونهجت أكثر من نُهج ، فَعَذَّبت ... ، واضطهدَتْ ... وآذَتْ ... وفَتَنَتْ ... وأَغْرَتْ ... ، غير أن كُلّ ذلك جميعه لم يُؤَدّ إلاّ إلى مزيدٍ من الإيمان ، ومزيدٍ من المؤْمنين ...

ثُمَّ تفتّق ذِهْنها الشّيْطاني عن أسلوبٍ جديد ... ، اسْتقر رَأْي أبالِسَةِ الشِّرْك – وعلى رأسهم « أبوجَهْل » – أن يَكْتُبُوا صحيفةً ، يُوَقِّعون عليها جميعاً ، ويوثّقُونها بتعليقها في جُوفِ « الكعْبة » ، بمقاطعة المسلمين و« بني هاشم » ، مقاطعةً كُلّيَّة ... ، لابَيْعَ ولا شراء .. ، ولا زواج أو تزاوج .. ، ولا تعاوُن ولا تعامُل ... ولا مُساكنة ..

وكان الغرضُ من ذلك التَّضْييق .. والتَهْجير والتَّقليص والإفناء... ، أو الإنابة والرُّجوع .

واضطُرَّ المسلمون ، ومعهم « بنو هاشم » إلى الخروج من « مكة » ، والإقامة في شِعْبٍ من شعابها يُسمّى : « شِعْب أبي طالب » ... ، وهي منطقة جبليَّة صخريْة جَرْداء ...

وهناك – ياولدي العزيز – عانى المسلمون ، ومن معهم ، أشدّ المعاناة ، وقاسُوا من الضّنك والجوع ألْواناً ، وأَنْفَق القادرون والأثرياء منهم أكثر أموالهم ، حتى أَنْفَقَتْ « خديجة » – رضي الله عنها – كُلّ مالها ...

وتفشَّت في بعضهم الأَمْراض ، وقارَبَ بَعْضُهُم حدُّ المَوْتِ والهلاك وليس فيما نَقُولُ أَدْنى مُبالغةٍ أَوْ تَهْويل ... ، بل كان الواقع التاريخيّ حسب ما تَرْويه لنا المصادر الموثوقة أشدّ من ذلك وأَقْسى ، وأَصْعَبَ وأَعْتى ...

لكنهم صَبروا وصمدوا ، وتحّملُوا ... ، وما تراجَعَ واحِدٌ مِنْهُم عن يقيينه ، وماآرتَدَّ عن دينِهِ .

كم تظُنّ يا عزيزي مكثُوا في هذا الحصار ؟

ثلاثَةَ أَعْوامٍ .. !!!

وإنها لفي عُمْر الزّمن ، وحِسابِ الشّدّة أكثر وأعظم .

ثُمّ قام نَفرٌ من رجالات « قريش » المعدودين ، مِمَّن تَرْبطُهُم ببعْض « بني هاشم » رابطة القُرْبى والنَّسب ، وصِلَةُ الرَّحم ، أو مِمَّن أَبَتْ حميّتهُم وأَنَفَتُهُم أن تلتصِقَ هذه السُّبَّةُ وهذا العارُ بجبين « قريش » ...

قامُوا بنقْض الصحيفة ، ونَفْض أَيْديهم مما كُتِبَ فيها .. ، وأَعْلَنُوا ذلك على الملأ من الناس ، وفي ندْوةِ « قُرَيْش » بالذات ... ، مما أَفْحَمَ الآخرين ، وأَسقط في أيديهم ...

فلما جاءوا يستخرجون الصحيفة من جَوْف « الكعبة » وَجَدُوها قد أَكَلَتْها الأَرَضَةُ (الْعِتّة) ؛ ولم يَبْقَ منها سوى طرف بسيط وجُزْء يسير عليه عبارة : [بآسْمِكَ اللهُمَّ !!!] .

وعاد المسلمون إلى « مكة » بعد أنْ فُكّ الحصار ، وآنفرجت الأزمة ، لكن قُرَيْشاً بمجموعها ظلّت على ماهيَ عليه من حرْبٍ وكيْدٍ ونُفور .

وقعت « خديجة » – رضي الله عنها – فريسةً للمرض منذ أن كانت في الشّعْب ، واشْتَدّ عليها بعد عوْدتها إلى دارها في « مكة » ، ولقد كان حُزْن رسُول الله ﷺ على ماألّمَّ بزوْجتِهِ الكريمة الوفيّة شديداً ... ، كما كان جَزعُ البنات عليْها عظيماً ، فهُنَّ فلْذاتُ الأَكْباد .. ، يَقُمْنَ على خِدْمتها وتمريضها ، ويَسْعَيْنَ إلى تخفيف مابها .. ، وفي عيونهن دُمُوع تَجُول ...

* * *

كانت «زينْب» – رضي الله عنها – كُبْراهُنّ ، وأَكْثرهنّ شبهاً بها ، وكانت قد تَزَوَّجت من ابن خالتها « أبي العاص بن الرَّبيع » ، فهي موزّعة المسئولية ، بَيْن اهتمامات الزّوْجية ومتطلبّاتها وبَيْن الواجب المقدّس نحو الأُمّ الفاضلة ...

وكذلك « رقيَّةُ » – رضي الله عنها – ، زوْجة « عثمان بن عفان » – رضي الله عنه – ، تُلازِمُ ماآستطاعت مَنْزل أبيها ، وتُشْرِفُ مع أخواتها على رعاية الأُمّ الحنون ، والعناية بها .

أما « أم كلثوم » و« فاطمة » – رضي الله عنهما – فكانتا بالْفِعْل هُما ربتا بيْت النبوّة في تلْك الفترة ، تدبران شئونه وترعيان أُمورَهُ ، وتُشَكّلْنَ مِحْوَرَهُ الذي تَدوُر عليه عَجَلةُ الحياة ، من خِدْمةٍ وعَمَلٍ وتصْريف .

ثم فاضت الروح الطاهرة إلى بارئها ، وخَيَّم الْحُزْنُ الثقيل على جوّ الْبَيْت ، وتَرَك ذلك في نَفْس النبيّ ﷺ جرْحاً عميقاً ، فهو لايَفْتأُ يذكرُ القلْب الكبير .. والوجْه المنير ... والْيَدَ الحانية .. ، فَيَجِدُ لكُلّ هذا غصّةً في أعْماقِهِ وَمْطفُرُ الْعَبراتُ الحرّى من عينيْه الشريفتيْن .

[ثُــمَّ ... « أبُو طالب » !!!]

وها هُو « أبوطالبٍ » – أيْضاً – شيْخ « بني هاشم » تتقدَّم به السِّن ، وتُقْعِدُهُ الشيُخوخَةُ عن الحركة ، ويدبّ المرض الشديد في أنْحاءِ جِسْمه ...

لقد كان بالنَسْبة إلى رسول الله ﷺ الأَبَ الراعي ، في طفولتِهِ وشبابِهِ ورجُولتِهِ .. ، قَبْل البعْثةِ وبَعْدها ، على مدى مايَقْرب من خمسين سنة .. ، لم يَتَخَلَّ أثْناءَها عن الحماية والمؤازرة .

ها هُو طريح الفراش ...

يُعاني سكرات الموْت ... ،

وها هُوَ رسُولُ الله ﷺ عند رَأْسِهِ ، في لَهْفَةٍ وضرَاعةٍ ،يرجوه وهو في حَشْرجةِ الموْت ليقُولَ كلمة الإيمان ، علّها تكُون شفيعةً له عند الدّيّان ... ، لكن غلَبَتْه قَبْضَةُ الرّوح ، فكان هَمُّ رسُول الله ﷺ بالنّسْبةِ إلى أبي طالبٍ مضاعفاً ... ، لِفقْدِه إيّاه ... ومن غير أن يُسْلم .

[اللهُــمَّ إلَيْك أشكُو ...]

تمادت قريش في طغيانها واستبْدادها وجبروتها وتسلُّطها ، كما أمْعَنَتْ في إيذاء المسلمين ، من المستضعفين وغير المستضعفين ، ولم تُراع لِأَحدٍ منهم

إلاًّ[1] ولاذِمَّة ، حتى أجترأ سفهاؤها على النَّيل من رسُول الله ﷺ ذات يوْم وهُو يُصلِّي عند « الكعبة » ... وآذوهُ .. ، فتدخَّل « أبوبكْر » — رضي الله عنه — ليُبْعِدَهم عن ظَهْرِ رسُول الله ﷺ وهُوَ ساجد ... ، وقال :

ــ أتَقْتُلُونَ رجُلاً أنْ يَقُول ربِّي الله !!!

يئِسَ رسُولُ الله ﷺ من صلاح أمْرِ « قريش » وهدايتها ، واستوائها على الصراط المستقيم ، ففكَّر في « الطائف » .. ، لعلَّ الله تعالى يَهْدي أهْلها قبيلة « ثقيف » ويشرح صدورهم للإسلام والإيمان ، فقصدهم وحيداً ، ليس معه من رفيقٍ ولا صاحبٍ ولا أنيس ، إلا الله تعالى ، يحفظه ويرعاه .

والرِّحلة — ياولدي العزيز — إلى « الطائف » ليست بالأمْر الهيِّن ، فهي على قُرْبها من « مكّة » — بالنسبة إلى غيرها من مُدُن الحجاز — إلاّ أنها صَعْبة المسالك ، شاقَّة الدروب ... ، تسْتريح مطمئنَّة فوق قِممَ الجبال العالية .

ولكن ... ، يهونُ كُلُّ صَعْبٍ في سبيل الله ..!!

أوَ ليْس « عليه الصلاة والسّلام » من أُولي العزْم من الرُّسُل؟!! بلى وخاتمُهُم‌وسيِّدهم — صلوات الله وسلامه عليْهم أجْمعين .

غير أنّ أهل « الطائف » ممثِّلين بقياداتهم وزعاماتِهم ردُّوه — عليه الصلاة والسلام — أقبَحَ رَدٍ ... ، وسَخِروا منْهُ ومن دَعْوتِهِ ... ، ونَفَروا كما نَفَرَتْ « قريش » ...

ولم يكتفُوا بهذا ، بَلْ أغروا بِهِ صِبْيانَهُم وغِلْمانهم فقذفُوهُ بالحجارة حتى أدْمُوا عَقِبَيْه .. ، وسالت دماؤُه الشريفة من رِجْلَيْه ...

فعادَ أدْراجَهُ من حَيْثُ أتى ، ولم يُرِدِ الله بـ « ثقيف » خَيْراً ...

---

(١) الإلُ العهْد .

ومِنْ شَدَّة حُزْنِهِ وأساهُ ﷺ ، وقد لَقِيَ مالقي ، فاضَتْ نَفْسه الشريفة بكلماتٍ تَقْطُرُ إيماناً وصفاءً ، فَدَعا رَبَّه قائلاً :

ـ [اللهُمَّ إليْك أشْكُو ضَعْفَ قُوَّتي وقِلَّة حيلتي وَهَواني على الناس ...

ياأَرْحَمَ الراحمين !!! أنْتَ ربُّ المستضعفين وأنْتَ رَبّي ، إلى مَنْ تكلِني[1] ، إلى بعيدٍ يَتجهَّمُني[2] .. ، أم إلى عَدُوٍ ملّكْتَهُ أمْري ؟!! إن لم يكُن بِكَ غَضَبٌ عليَّ فلا أُبالي ... ، ولكنَّ عافِيَتَكَ أوسَعُ لي .

أَعُوذُ بِنُور وجهِكَ الذي أشْرَقَتْ له الظُّلُمات ، وصَلُحَ عليه أمْر الدُّنْيا والآخرة ، من أن يَنْزل بي غَضَبُك ، أوْ يَحِلَّ عليَّ سَخَطكُ ، لكَ الْعُتْبى حتى تُرضى ، ولا حوْل ولا قُوَّةَ إلاَّ بك]

ثُمّ جَلَس « عليه الصلاة والسلام » في ظِلِّ شَجرةٍ ليستريح قليلاً ، وقد بَلَغَ ضاحية « الطائف » ، حَيْث البسياتين والزروع ...

فرآهُ غُلامٌ نَصْرانيٌّ إسْمهُ « عَدّاس » ، يَعْمل مُزارعاً عند بعض أهْل « الطائف » ، فحمل إليه قطفاً من عِنَبٍ ... ، فشكره ﷺ ، وحين مدَّ يده لِيأْكُلَ سمّى الله تعالى .. ، فَتعجَّب « عدّاسُ » من ذلك ، لأن التَسْمِيَةَ بأسْم الله تعالى لَيْست من عاداتِ أهْل البلاد الوثنيّين ...وأبْدى هذا التعجُّب ... ؛ فَنَظَر إليه رسُول الله ﷺ ... ثم سأله : من أي البلادِ أنْتَ ؟ قال « عدّاس » : من « نينوى »[3] ..!

فقال ﷺ : من بلد الرجُل الصالح « يونس بن مَتّى » ..!؟

قال « عدّاس » : ومن أدْراك ما« يونس بن متى » !؟

فَرَدَّ ﷺ : أنا نَبِيٌّ وهو نَبِيّ ...

---

(١) تَكِلُني : تُوكّل بي . (٢) يتجهمني: يُبغضُني ويُؤذني . (٣) بلدٌ ب « العراق »

فانْكَبَّ « عدّاسُ » على أَطْرافِ رسُول الله ﷺ يقبّلها ، باحْترامٍ وحنانٍ ولهْفة .

[سُبْحان الّذي أسْرى ...]

بعد رَجُوعِهِ ﷺ من « الطائف » وقدْ أصابَهُ من جرّائها المشقّة والأذى ... وبعد وفاةِ « خديجة » – رضي الله عنها – ...

وبعد موْتِ « أبي طالبٍ » ...

وآشتداد الأذى من « قريش » ...

وتجُمعِ الأحْزان على قلْب رسُول الله ﷺ ...

بعد كُلّ ذلك ، كان لابُدّ من المواساةِ والعزاء للقلْب الشريف ، وتخفيف مابِهِ ، وإعطائِهِ دفْعَةً جديدةً من العناية الربّانية لِتَشْحَنَهُ بطاقةٍ من العزْم والإصْرار لمتابعةِ المسيرة وتبليغ الرسالة وأداء المهَمة .

ففي ليلة السابع والعشرين من شهر « رَجَبٍ » – من تلْك السّنة – ، وبيْنما كان رسُول الله ﷺ يبيتُ في دار ابنةِ عمّه « أُمّ هانىء بنت أبي طالبٍ » ، جاءَهُ الروح الأمينُ « جبريلُ » – عليه السلام – بـ « البُراق » ، دابّةٌ أشْبَهُ بالْفَرس ، لها جناحان ، سريعَةُ الْعَدْو كالْبَرْق ، يَضَعُ حافِرَهُ عند مُنْتهى طرْفِهِ – أي نَظَرِه – ،

فأرْكبه عليه ، ثم مضى به إلى « بَيْتِ المقْدس » من أرْض « فِلسْطين » حَيْث « المسجْد الأقصى » الذي بارَك الله حوْله بكثْرةِ الأنبياء وتتابُع الرسالات ، طاوياً مسافات الكوْن والزّمان في لحظاتٍ !!!

ومنِ هُناك ، عُرِجَ به إلى السماواتِ العُلى ... ، فكان يمُرُّ « عليه الصلاة والسلام » في كُلِّ سماءٍ بإخْوانِهِ من الأنبياء ، فيسلِّم عليهم ويسلِّمون عليه .

حتى دَنا فَتَدلّى ، فكانَ قاب قوْسيْن أوْ أدْنى من العرْش ، وسَبَحَ « ﷺ » في بَحْرٍ نور ، وثبّت الفؤاد على اليقين ، وأمدَّهُ ربُّه بطاقةٍ هائلةٍ من الفيض الربّاني ...

وفي السماء – ياولدي – فُرِضَتِ الصلاةُ خَمْس مراتٍ في اليوْم والليْلة ...

* * *

[« أبوبَكْر » ... الصِّدّيق !!!]

وحدَّث النبيُّ ﷺ ابْنَةَ عمه « أُمَ هانىء » بما حَدَث له وبما رأى ... ، وقال لها :

ــ إنّي ذاهب إلى الناس مُحَدِّثهُم بذلك ...

فخافَتْ عليه أن يكذّبوه ، ورجَتْهُ أن لا يَفْعل ضَنّاً بِهِ وَحُرصاً عليه ، فلم يَستمِعْ لها . ثم أتى فناء « الكعْبة » وجَلَس إلى الناس وراح يحدِّثُهُم ... ، وظَنَّ أكثرُهُم أنَّه قد أصابَهُ مَسٌّ ... ، حتى إن كثيراً من المسلمين المؤمنين اهْتَزّوا من أعْماقِهِم وزُلْزِلُوا .. ، وراوَدَهُم الشّكُّ فيما يَقُول ... وكان موُقف المشركين السامعين أدْهى .. ، فقد جَعَلُوا من الحديث مادّة سُخْرِيةٍ واسِتْهزاء ...

وأسْرع أحَدُ المسلمين الحاضرين يَبْحَثُ عن « أبي بكْر » ، ليكون إلى جانبِ النبيِّ ﷺ في مثل هذا الموقف ... !!

وحين وجده أخبره الْخَبَر ، فبادَر « أبوبكْر » – رضيَ الله عنه – إلى مَجَمع الناس .. ، وكان وُصُوله في اللحظة التي سَأَلَ فيها بعض الحاضرين من المشركين رسُول الله ﷺ أن يَصِفَ لهم « بَيْت المقُدس » إن كان صادِقاً فيما يقول ويْزعم ...

وجَلَّاها الله تعالى لنبيّه « عليه الصلاة والسلام » ...

جّلىٰ «بَيْت المقدس» كأنها صفحة مفتوحة أمامه ، أو لوْحة مرْسومة ، فأخذ يصفُها جُزْءاً ... جُزْءاً ...

وكان كُلّما وصف .. ، ثَنّى « أبوبكرٍ » على قوْله ؛ بِقَوْلِهِ :

— صَدَقْتَ يارُسول الله

إذ كان – رضي الله عنه – يعرفها حقّ المعرفة من خلال زياراته المتكّررة لها .

ومن هنا – ياولدي العزيز – كانَ لَقَبُ « أبي بكْر » – رضي الله عنه – بـ « الصَدّيق » . ولقد كان اسْمُهُ في الجاهليَّة « عبد الْكَعْبَةِ » فسَماهُ رسُول الله ﷺ : « عَبّد الله » .

وسأل أَحَدُ الحاضرين « أبابكْر » :

— كيْف تُصَدِّقُهُ فيما يَقُول ؟

فَأجاب :

— إني أُصَدِّقُهُ فيما هُوَ أبْعد من ذلك وأعظم ، إني أُصَدِّقُهُ بخبر السَّماء – الوحّي – يَأْتيه في ساعةٍ من لُيلٍ أَوْ نهار ...

* * *

[دليلٌ آخر ...]

لم يكْتَفِ المشكّكُون بهذه التساؤلات ، فقال قائلهم : نريد دليلاً آخر ...

فقال ﷺ : لقد لقيت في الطريق قافلةٍ ، يتقدّمُها جَمَلٌ أوْرق[1] عليه غِرارتان[2] .. ، آتية صوب « مكة » يُنْتَظَرُ وصُولها مع غروب شَمْسِ الْغدِ بإذْنِ الله ...

وصَدَق رسُولُ الله ﷺ ...

ووصلت القافلة في ميعادها .. وعلى الصُّورة التي ذكرها ...

لكنَّ الكافرين ظَلُّوا في ضلالٍ بعيد .

وصَدَق فيهم قوْل الله تعالى :

﴿ مَاتأتِيهم آيةٌ من آيات رَبِّهم إلاّ كانُوا عَنْها مُعْرضين ﴾

* * *

[بَيْعـة الْعَقَبةِ الأُولى]

ثُمّ ولّى رسُولُ الله ﷺ وَجْهَهُ وقلْبه شَطْر أَهْل المواسم ، من الأعراب القادمين إلى « مكة » بعد أن لَجَّتْ « قريش » و« ثقيفٌ » في عُتُوِّهما ، وتنكُّرهما لِلَحقّ ..

وراح « عليه الصلاة والسّلام » يلْقى الناس في رِحالهم ، ومواقع نُزُولهم وخيامهم ، فَيَعْرض عليهم دَعْوتَهُ .. ، ويَشْرح لهم... ، ويتْلو عليهم آياتٍ من

---

(١) الوَرق : الأغبر .

(٢) غرارتان : كيسان ضَخمان .

القرآن ، ويُبصِّرُهم بواقعِهِم ومُستَقبلهم ...

وكان عمُّه « أبو لَهَبٍ » يتتبَّع خُطوتِهِ ...

فإذا ما حَدَّث قوْماً ، جاءَهم « أبو لَهَبٍ » من بَعْدِهِ يُحذِّرهم منه ، ويُفسِدِ ما قالَهُ لهم ، وينْعَتُ النبيَّ ﷺ بنُعُوتٍ دَرَج عليها أهْل « مكة » .. ، ولم يجدوا في قامُوسِ مفترياتهم على الله ورسُولِهِ غيرها ... ، فتارةً يقولون بأنّه ساحر ... ، وتِارة بأنّه شاعر ... ، وأُخرى بأنّه كاهن ، ورابعة بأنّه مَجنون !!!

وكان لِـ « قريش » مكانة كُبْرى في نفوس الأعراب من القبائل وأهل البوادي ، لأنها أكبر القبائل ، وأقواها ، وأغناها .. ، والقيِّمة على « الكعبة » .. ، فكانوا يَستَجيبُون لِـ « أبي لهبٍ » ويُطاوِعُونَهُ ...

حتى وَقَف رسُول الله ﷺ عند بعض أهْل « يَثْرِب » — [المدينة] — — وهنا — ياولدي العزيز — كان بَدْءُ التحوُّل العظيم والكبير ، في مسارِ الدَّعْوة ، وتاريخ الإسلام !!!

إستَمَعُوا إليْه .. ، وأنْصتُوا ... وأصْغُوا .. ، ثم تشاوروا فيما بَيْنهُم ، وقال قائِلهُم :

— أتُراهُ النبيُّ الذي تُنْذِرُكُم بِهِ يَهُود؟!

ثم أجْمعُوا أمْرَهم على الإسلام والبيْعة ...

فاْجْتمعُوا ثانيةً برسُول الله ﷺ في جَوْفِ اللَّيْل عند « العقبة » ، وهي ضاحيةٌ من ضواحي « مكة » ، في سرية وحَذَر .. ، وبايَعُوا .. ، وكانُوا نَفَراً قلائل ... ، كُلّهُم من قبيلة « الْخَزْرج » ، وهي أكبر قبائل « يثْرب » ، لايزيدون على سِتّةِ أنْفار ... ،

وفي عامٍ قابلٍ ... ، ازداد عَدَدُهم إلى أكثر من سَبعين ، من « الأَوْس » و« الخزرج » معاً ، وبايَعُوهُ بيعة الْعَقَبةِ الثانية .

والسَّبَبُ في ذلك ، هو أَنَّ الأوائل السابقين طَلَبوا إلى رسُول الله ﷺ أن يَبْعَثَ معهم مَنْ يُفَقِّهُهُم في دين الله ، فَاختار « عليه الصلاة والسلام » — مصْعَبَ بن عُمَيْر » — رضي الله عنه — ، وزوَّدَهُ بنصحه وَدُعائِهِ .

وكان « مُصْعبُ » شاباً في مُقْتَبل الْعُمْر ، قد صَهَرَتْه الدعْوة وتمكَّنَتْ مِنْ قلْبِهِ وجوارِحِهِ .. ، عَزَف عن الدُّنْيا وزُخْرفها وزينتها .. ، وآثَرَ الله ورسُولَهُ على كُلِّ ما عداهُما ...

ولقد آستطاع — رضي الله عنه — بكُلّ ما أُوتي من عُمْق إيمانٍ وَسِعَةِ إدْراك وحُسْن حديث أن يُؤثّر في مُجْتَمَعِ « المدينة » تأثيراً بالغاً ، وأن يُسَطِّر صفحاتٍ من الْفَتْح الربّاني في قُلُوب « الْأَوْس » و« الْخَزْرج » ...

وهكذا شأْنُ الداعية الحقّ ...

فلمّا عادَ — رضي الله عنه — مع المْوسم التالي إلى « مكة » كان معه من رءوس النـاس من أهْل المدينة اثْنانِ وسَبْعُون رجُلاً وآمْرأتان ... ، كُلُّهم على قلْب رَجُلٍ واحد ... ، قَدْ خالط الإسلام دماءَهم في عُرُوقهم وشرايينهم .. ، يشَعّ ضياءً باهِراً في قلوبهم وأرواحهم .

سأل النبيُّ « ﷺ » داعيَتَهُ « مُصْعَبَ بن عُمَيْر » : كيْف خلَّف « المدينة « وراءَه » ؟ فأجاب : لم يَبْق فيها بَيْتٌ إلاّ وفيه ذِكْر إسْم « محمد » — ﷺ — .

ثم أجتمع النبيُّ « ﷺ » بِوَفْد « يثْربِ » ، من الأَوْس » و« الْخَزْرج » ، وحَضَر مَعَهُ عمّه « العبّاس بن عبدالمطلب » — الذي كان لايزال على شِرْكِهِ ولكنه أَحَبَّ أن يَسْتَوْثق لآبن أخيه من الْقَوْم .

فبايَعُوهُ وعاهدوه على نُصْرَةِ دين الله ومؤازَرَةِ الدَّعْوة ، والقيام بأَعْبائها وواجباتها ، وجهاد الأحمر والأسْود من الناس في سبيل ذلك ... مهْما غَلَتِ التَّضْحيات ...

ونَظَّمَهُم « ﷺ » ...

فطلب إليهم أَنْ يُخْرِجُوا من بَيْنهُم نقباء عليهم ، أي عُرفاء .. ، فَأَخْرجُوا آثْنَيْ عشر نقيباً ، تسعة من « الْخَزْرَج » وثلاثة من « الأَوْس » ...

وكانوا – رضي الله عنهم – طليعة « الأَنْصار » ...

وعادوًا إلى « المدينة » بانْتظار الْمُستَجِدّاتِ من الأَحْداث .

* * *

الفَصْــل الثــالث

[إنَّ الإيمان لَيَأْرِزُ[1] إلى « المدينة » ...]

نعم ، ياولدي العزيز ، هذا ماقاله رسُولنا الأكرم ﷺ ؛ وتمامُ القوْل الشريف :

[إنّ الإيمان لَيَأْرِزُ إلى « المدينة » كما تَأْرِزُ الحيَّةُ إلى جُحْرِها] .

فهذا المسارُ لِلدّعْوةِ ... ، الذي رأَيْتَهُ وقَرَأْتَهُ .. ، كان بتدبيرٍ وقَدَرٍ من الله تعالى ، فحين أَبَتْ « قريش » أن تَشَرُّف بَحْمل الرسالة ، وتنكّبَتْ بصلفها وغرورها عن جادّةِ الحقّ .. ، وكذلك « ثقيف » في « الطائف » ؛ قَيّض الله تعالى للإسلام جُنْداً من « الأنصار » ... من أَهْلِ « المدينة » يَحُصْنونه ، ثُمّ يتلبَّسُونَهُ ... ، ويخوضُونَ غمرات المَوْت وميادين القتال والشهادة دفاعاً عنه وإعلاءً لكلمتِهِ ، ورفْعاً لرايتِهِ .

وأصْبَحت « المدينة » ملاذاً لِلحقّ وأَهَلِهِ ...

بَعْد « الْبَيْعة » ... أَوْعَزَ النبيُّ ﷺ أَنْ يبدءوا الهجرة إلَيْها في سبيل الله ، فَنَشِطُوا جماعاتٍ وفرادى ، أكثرهم خِفْيَةً ... ، وبَعْضُهُم مُتَسَتِّراً بِلَيْل أَوْ في صَمْتٍ وكتْمان .

• لكنَّ « قريشاً » التي آذَتْ وطَغَتْ أَحسَّت بخطورةِ هذا التحوُّل ، فعزمَتْ على الوقوفِ في وَجْهه بُكلّ ماأُوتيت من جَبَرُوتٍ وطُغيان ... ، فلقى

---

(١) يأرز : يحتمي ويتحصّن .

بعض المهاجرين صُنُوفاً من الأذى والعذاب مالا يتحمّله بشر ، ولا يطيقه إنْسان .. ، ومايزال إلى يَوْمنا هذا مَضْرِبَ مَثَلٍ في التَّضْحية والجهاد ، لكُلِّ المؤمنين ودُعاةِ الحقّ .

وإليْك بعض النماذج ...

فـ « أبوسَلَمة » و« أم سَلَمة » – رضي الله عنهما – أُسْرَةٌ مُسْلِمة من السابقين ، تتكوَّنُ من ثلاثة أفراد ، الزوج والزوجة والطفل الصغير « سَلَمَة » ، الذي لايزالُ في الْحجِرْ ...

هذه الأُسْرة يَوْم هجرتها تصدى لها عند ضاحيةٍ من ضواحي « مكة » رهْط من المشركين ، يريدُون أن يحُولُوا بَيْنهم وبَيْن مقْصدهم .

فَمَّنَع قوم « أم سلمة » – أبا سلمة » – من أَخْذها معه ، وتركُوهُ وحيداً يْمضي ، من غير زوجةٍ ولا وَلد ... ، وفرَّقُوا بيْنه وبيْن شريكة حياتِهِ وفِلْذَةِ كبده .

ثُمّ جاءَ رهْط « أبي سلمة » فنازعُوا القوْم الآخرين في شأْن الطفل الصَغير ، وراحُوا يتجاذَبُونَهُ من حِجر أُمِّهِ بقسْوةٍ ووحشيَّةٍ حتى خَلَعُوا كتِفَهُ .. ، ثم تركوه ...

وعادت « أُمُّ سلمة » بطفْلها المنْكوب إلى « مكة » ... ، وأقامت فيها شاكيةً باكية ... ممزَّقة الجوارح والعواطف .. ، حتى أَذِن الله تعالى لها بالْفَرَج .. ، وهذا الْفَرَجُ كان بِفَضْل دُعاءِ النبيِّ ﷺ لكُلِّ من آحْتبس ... وعُذِّب .. وقُهِرَ ... وآفْتُتِنَ في دينِهِ ... ، فكانوا جميعاً يأْتُون ، وينقذهم الله تعالى من بَيْن أَيْدي الجبّارين .

أما صّورة هجرة سيّدنا « الفاروق » – « عمر بن الخطاب » – رضي الله عنه ، فقد كانَتْ آيةً في الشجاعة والتحديّ ، ،إذْ أشهر سَيْفه وتنكَّب قوْسه وخَرَج إلى فناءِ « الكعْبة » ووقف على الملأ من الناس ، ونادى :

ـــ مَنْ أراد أَنْ يُرَمِّلَ زوْجَتَهُ ، أو يُيَتِّم وَلَدَهُ فَلْيَلْحقْني إلى بَطْن الجبل ... ثم غادَرَهُم ومضى في طريقه .

وكان قد استأْذَنَ رسُول الله ﷺ في الهجرة ، إذ لم يكن أَحَدٌ من المسلمين المهاجرين يترك « مكة » إلا مُستأْذِناً ، ليتزوَّد من بركةِ دُعاءِ النبيِّ « عليه الصلاة والسلام » ؛ وهذه أُمُورةٌ تدبيريَّةٌ تنْظيميَّة وعاها وطبَّقها الرسُول القائد – صلوات الله وسلامُهُ عليه » .

أما سيِّدنا « أبوبكْر الصدّيق » – رضي الله عنه – فقد كان يأْتي إلى رسُول الله يَسْتأْذِنُه .. ، فيُؤَجّله « عليه السّلام » ويؤخّره ، ويقول له : [لا تعْجل لعلَّ الله يَجْعل لَكَ صاحِباً ...] حتى هاجَرَ أكثر المسلمين إلى « المدينة » ، ولم يَبْق في « مكّة » إلاّ رسُول الله « ﷺ » ومعه « أبوبكر » – رضي الله عنه –و« عليُّ بن أبي طالبِ » – كرَّم الله وَجْهه – ونَفَرٌ قليل من المسلمين ، بِأَهْليهم وذراريهم .... ، وبَعْض الَّذين حُبِسُوا وفُتِنُوا .

[وإذْ يَمْكُرَ بِكَ الذين كَفَروا ...]

لم تكْتَفِ « قريش » بالتَّصَدِّي للمهاجرين ... ، وعرْقلة خَطِّ سيرْ الدعْوة على هذه الصُّورة ، إنما تمادَتْ فأتْتَمَرتْ برسُول الله « ﷺ » للخلاص مِنْه ... ومن دينِهِ ...

كيْف ؟

يقول الله تعالى :

﴿وإذْ يمكر بِكَ الَّذين كَفَروا لِيُثْبِتُوك أو يَقْتُلُوك أَوْ يُخرِجُوك * ويمْكُرون ويمْكَر الله والله خَيْر الماكرين﴾ .

لقد دارت رؤوس السادة والزعماء الجهّال بما يرون ويسْمعُون ، وهزّتهم حركة الهجرة ، فاْجْتَمعُوا في دار النّدْوة[1] يتشاورون لمواجهة الموقف ، وآسْتَقَرَّ رأيهم على أن « محمداً » – ﷺ – هو رأْس الْأَمْر ، فإذا تَمَّ الخلاص منه ارتاحُوا إلى الْأَبد ...

ولكن ... كيْف يتمُّ ذلك ؟ وعلى أَيَّةِ صورة ؟

بيْنما هم في تشاورهم وبَحْثهم رَأُوا عند باب دار الندوةِ شيْخاً واقفاً ، فَسَأَلُوهَ مَنْ هو ؟ وماذا يريد ؟

فقال إنه شيْخ من « نجْد » ، قد سَمِعَ بمؤتمرهم هذا ، فجاء إليهم لِيُشاركهم الرأْي ، بما لدْيه من نُضُوجٍ وَوَعْي وحِكْمة ...

لم يكن هذا الشَّيْخ سوى « إبليس » قد تَزيَّ بهذا الزيّ ... وظهر بهذه الصورة ... فَرَحّبُوا بِهِ ودعوْهُ إلى الدُّخولِ والجلوس والمشاركة ...

قال قائل منهم :

— أرى أن تحبِسُوا « محمداً » في مكانٍ ، وتقيّدوه بالحديد ، وتَمنَعُوا عنه الطعام والشراب حتى يَقْضي ...

فقال الشيْخ النّجْديُّ « إبليس » : ما هذا برأْي ... ، فلا تنْسوا أنّ معظم أصحابِهِ قد أَصْبَحُوا بعيداً عن متناول أيديكم .. ، وهم لن يتركوكم تفْعلُوا هذا .. ، حتى يأْتوكُم ويَخلّصوهُ من أَيديكُم .. !

وقال آخر : إذاً ... نتركه يْمضي من بَيْننا .. ، ونَمْنَعَ أنفسنا وبلدَنا من شَرّه وخطره ، فاْعْترض « إبليس » أَيْضاً وقال : وهذا أَيْضاً ليس

---

(١) هي دار أحد جدود القرشيين « قصى بن كلاب » ، وكانت بالنسبة إلى قريش « برلمانهم » !!!

برأيْ ... ، إن عليْكم أن لا تنْسُوا حلاوة حديثه ، وعذوبة لفظه ، وقوّة تأثيره وسِحْرِهِ في الناس .. ، فإنكم إن تركتموه يخرج لأستطاع أن يجمع عليكم العرب جميعاً ... ، وعندئذٍ لن تستطيعوا أن تفعَلُوا شيئاً وتكُونوا أنْتم الخاسرين ...

عندئذٍ قال « أبُوجَهْل » » :

ــ أرى أن نُعْطي شاّباً جلْداً قوّياً من كل قبيلةٍ مِنّا سَيْفاً قاطعاً ... ، فَيَحيطون بـ « محمد » ويَضْرِبُونه ضَرْبة رجُلٍ واحد .. ، فيتفَرّق دَمُهُ في كُلّ القبائل .. ، ولا يقْوى « بنو هاشم » بعد هذا على مقاومة كُلّ الناس ومحاربتهم ...

فقال الشيْخ النجديُّ « إبليس » هاتِفاً صارخاً : فَرِحاً :

ــ هذا هُو الرأْي الصّواب .. !!

[الهجرةُ ... أَعْظَمُ حَدَثٍ في تاريخ الإسلام]

ولدي العزيز :

إن الهجرة النبويّة الشريفة تُعْتبر بِحَقٍّ من أعظم أَدْوار مسيرة التاريخ الإسلامي ، ومقصد من أَهَمّ المقاصد ، وآنتقال من دَوُر الجهادِ بالصَّبْر والتَحمُّل ، إلى دَوْر الجهاد بمقارعة الأَعْداء ومنازلتهم ...

فحين أَذِن الله تعالى لرسُولِهِ « ﷺ » بالهجرة .. ، أتى إلى دار « أبي بكْر » – رضي الله عنه – ، فَأَعْلَمَهُ بذلك ، فآشترى « أبوبكر » راجلتيْن ، عَهِدَ بهما إلى موْلى لهُ يعمل في خِدْمتِهِ ، هُو « عامر بن فهير » .

وتمَّ كُلّ ذلك بِسِرِّيَّةٍ وكِتْمان ...

وفي لَيْلةِ الهجرة ، كان فِتْيانُ « قريش » قد أحاطوا بدار النبيِّ « ﷺ » ليفْتِكُوا بِهِ عند خروجِهِ .

وطلب « عليه الصلاة والسلام » من « عليّ » ... الفتى المسلم ... المؤمن ... الفدائِيّ الشُّجاع .. ، أن يَتمدَّدَ في فراش النبيِّ « ﷺ » بَدَلاً مِنْه ، ويلْتَحِف بِبُرْدِه ... لِيُوهِمَ الرُّقباء بأنّه مايزال نائماً ... وفي فراشه لم يُغادِرْ دارَهُ ...

قد تسْألني ياولدي العزيز :

كيْف يَفْعل ذلك رسُول الله « ﷺ » ؟ وكيْف يُخاطِرُ بـ « عليٍّ » بَدَلاً مِنْه ؟

والجواب بسيط ... ، فقد قال « عليه الصلاة والسلام » لِـ « عليٍّ » :

ــ لن يَخْلُصُوا إليْك ... ولن يَضُرُوك بأذى ...

لقد كان هَمُّهم ومَطلَبهُم رسُول الله ﷺ .. وليْس « علياً » – كرَّم الله وَجْهه – ... ، فالخطر والأذى مُسْتَبْعد ...

ولقد كان هذا التصرُّف من رسول الله ﷺ بالنسبة إلى « عليٍّ » – رضي الله عنه – ثِقَةً مِنْه بِهِ ، وبكفاءَتِهِ .. ، ولِأَنَّهُ « عليه الصلاة والسلام » أَراَد من « عليٍّ » أن يَرُدَّ للناسِ أماناتهم الْمُودَعة عِنْدَه – ﷺ – ...

* * *

[فَأَغْشَيْناهُم ...]

وخَرَج « عليه الصلاة والسّلام » من باب دارِهِ ... ومرَّ من بَيْن فِتْيان « قُرَيش » ... وهُوَ يَتْلُو قَوْل الله تعالى من سُورَةِ « يسْ » :

﴿ وجعلْنا من بَيْن أَيْديهم سدّاً ومن خَلْفِهم سَدّاً فَأَغْشيْناهم فهُم لا يُبْصرون ﴾

فصاروا نياماً لا يَشْعرون ...

وكأنَّهُم قد خُدِّروا ...

وآجْتازهم « ﷺ » في ثقةٍ فائقةٍ باللهِ عَزَ وجَلّ ، آمناً مُطْمئناً ، حتى بلغ دار « أبي بكْر » ... ، ثُمَّ خَرجا سوياً من بابٍ خلْفيٍّ .. ، وآتّجها جَنُوباً من « مكّة » بَدَلاً من الشمال الذي هُوَ الطريق إلى « المدينة » ... ، حتى بلغا غار « ثَوْرٍ » ...

* * *

[ثـانِي اثنَيْن ...]

وحين أراد رسُولُ الله « ﷺ » دُخول الغار أبى عَلَيْه « أبوبكْر » ... إلاّ أَنْ يَدْخَلَ قَبْله ، زيادَةً في الاطمئنان ، وحِرْصاً على سلامةِ الرسُول ﷺ من أذَى الهَوامّ والسِّباع وغَيْر ذلك .

وآسْتفاق فِتْيانُ « قريشٍ » ... الرُّقَباءُ المخَدَّرون بِخَدَرِ الْجَهْلِ والضلالةِ والعمى ... ، استفاقُوا من سُباتِهِم وتحسَّسُوا رُءوسَهُم التي نُثِر فَوْقهَا الرَّمْل والتّراب .. ، ثمَّ اقتحموا الدّار شاهرين السُّيوف حتى بلغوا الفِراش وتحلَّقوُا حوْله .... ، وفوجئوا بـ « عليٍّ » – كرَّم اللهُ وَجْهَهُ – مُتَمدّداً ...

فأُسقط في أَيْديهم وآرْتدّوا .. ، وآنطلقُوا مع آخرين على خيولهم يتتبعُونَ الْأَثَر .. ، حتى بلَغُوا سَطْح غارِ « ثوْر » ، الَّذي تَغطَّى مَدْخله بنسيج عنكبوتٍ .. ، وشُجَيْرةٍ على أَحَدِ أغصانها يمامتانِ بريّتانِ .. قد باضتا ...

سَمِعَ « أبوبكْر » – رضي الله عنه – صوْت وقْع حوافرِ الْخَيْل ، فقال : – يارسُول الله ... لوْ أنَّ أحَدهم رَفَعَ قَدَمَهُ لرآنا ...

فقال له رسُول الله « ﷺ » :

ـــ يا « أبا بكْر » لا تحْزن ... ماظَنُّك بآثنيْن الله ثالثهما ...

وفي هذا ... يَقُول الله عزَ وجل :

﴿ ثانِي آثنيْن إذْ هُما في الغارِ إذْ يَقُول لصاحِبِه لا تحْزَن إنّ الله مَعَنا فَأنْزَل الله سكينَتَهُ عليه وأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لمْ ترؤها وجَعَلَ كَلِمَةَ الّذين كفروا السُّفْلى وكِلمَةُ الله هي العُلْيا والله عزيزُ حكيم ﴾[1] .

ومكثا في الغار ثلاثة أيامٍ بلياليها ...

فكان « عبدالله بن أبي بكْر » يُزوّدهما خلالها بأخْبار « قريش » وتحرُّكاتها ، ويأتيهما « عامر بن فهير » – موْلى « أبي بكْر » – فَيُعفّي على آثارِ أقْدام « عبدالله » ويَمْحوها .. ، ويحْلبانِ وَيَشْربان ...

وجاءَتْهُما « أسماء بِنْتُ أبي بكر » – رضي الله عنها – بزادِ السفر لِلرِّحْلةِ المباركة ، في اليوم الثالث ، ولما أرادت أن ترْبط الزاد بإحْدى الراحلتيْن لم تَجِدْ ما ترْبطُها بِهِ ، فَنَزعتْ نطاقها وشَقَّتْه نِصْفيْن ... ، ربطت بأحَدِهما الزاد وتمنْطقت بالآخر ... ، فَسمّاها رسُول الله « ﷺ » : « ذات النّطاقيْن » وبَشَّرها بنطاقيْنِ في الجنّة ...

ثُمّ آنطَلَق الرّكْبُ على بركةِ الله .. ، يقودُهُ الدّليل « عبدالله بن أريْقِط » ، وكان مُشْرِكاً .. !!

---

(١) سورة (التوبة) الآية ٤٠ .

انطَلَقَ الرَّكْب الميمون في أَعْظم رحْلةٍ عرفها تاريخُ البشرّية والإنسانية ، محاطاً بعنايةِ الله تعالى ، تكْلَؤه الملائكة وتحرُسُه ...

[« سُراقة بن مالكٍ »]

بعد أن أعْيَتْ الْحَيلُ « قُرَيْشاً » ولم تمسك برسُول الله « ﷺ » ... رَصَدَتْ جائِزَةً مائِةَ ناقةٍ لِمَنْ يأتيها بـ « محمد » - ﷺ - حيّاً أَوْ ميْتاً ...

وطمِعَ بهذه الجائزة السَّخِيِّةِ صُعْلُوكٌ من صعاليكها يُدْعى « سُراقة بن مالكٍ » ، فجهَز نَفْسه ، وخَرَج على فرسه يتتبَّع أَثَر الرّكب ،

حتى إذا قارَبَهُ لَكزَ فَرَسه ليُسْرع بِهِ ... فساخَتْ قوائمه في الرِّمال ، فتشاءَم من هذا !! ، ثم نهض ثانيةً وعاد يَتْبع الركب ... فلما قارَبَهُ أَيْضاً ساخَتْ قوائم الفرس في الرِّمال أَيْضاً ... ، فآزداد تشاؤمه ... ثم قامَ وآشْتَدَّ وجرى مسرعا ، فلمّا قاربهم في المرَّة الثالثة سقط هُوَ والْفَرَس ...

وأدْرك « سُراقةُ » أن النبيَّ ﷺ مَمْنُوعُ .. محْفُوظٌ .. محْميٌّ من الأذى والضّرر ... ، فنادى الْقَوْم ... ، فَتوقّفُوا عن المسير وسَأَلُوهُ عن مُرادِه ومُبْتَغاهُ ، فَأَخْبَرهُم أَنَّهُ لا يُريد بهِم شَرّاً ... ، وبانَّهُ يريدُ الأمانَ لِنَفْسِهِ ...

فأمر النبيِّ « ﷺ » « أبابكْر » أن يكْتُب لِـ « سُراقة » أماناً ، فلم يجِد - رضي الله عنه - سوى عَظْمٍ ... فكتَبَ عليه ، وأَعْطاهُ لِـ « سُراقة » الذي عاد إلى « مكّة » ليُضَلِّل « قُريشاً » عن اللّحوق برسُول الله « ﷺ » ومَنْ معه .

* * *

[أُمُّ مَعْبَـــد » ...]

كان الطريق طويلاً شاقاً ، والشَمْس حارَّةً لاهبةً ، ولظى الرمال السّاخنة يَشْوي الحجارة الصّمّاء ...

ثُمّ لاحَتْ عن بُعْدٍ خَيْمة .. ، فاقتربُوا منها .. ، فإذا عَجُوز تقف ببابها .. ، فسألوها عن صاحِبِ الخيْمة ، فقالت إنه خَرَج في شُوَيْهاتٍ – أغنامٍ – له يَرْعاها ، فطلبُوا إليّها أنْ تُطعمهم .. ، فقالت : ما في الخيْمة من طعام .. ! ثم طلَبُوا الشراب .. ، فقالت : إنّه ليْس لديْها شيْء سوى شاة هزيلة أقعدها الضّعْف عن الخروج من زميلاتها ...

فقام رسُول الله « ﷺ » فَمَسَح ضَرْع الشاةِ ثم حلبها فدَرَّتْ إدّراراً عظيماً جَعَلَ صاحبَةَ الخيْمة « أُمّ معبدٍ » تَذْهَلُ وتتعجّب ...

وشرب الجميع حتى آرْتَوُوا .. !!

ولاحظت « أم معبد » ملاحظاتٍ كثيرة ، رَسَخَتْ في ذِهْنها وتصوُّرها عن رسُولِ الله ﷺ وتعامُلِهِ مع رفيقيْه ... ، وكذلك تعاملهم مَعَهُ ، كما انطبعَتْ في مُخيِّلتها صُورتُهُ – « عليه الصلاة والسّلام » – .

ثم غادَرُوها شاكرين

فلمّا حَضَرَ زَوْجُها وقصَّتْ عليه الْقَصص ومارَأَتْ من الْعَجَبِ العُجاب ، وَوَصَفَتْ له رسُول الله « ﷺ » وَصْفاً دقيقاً مايزالُ محفوظاً عن لسانها في بُطُونِ كُتُب السِّيرة ... ، قال زَوْجها : إنّي لأَظُنُّه صاحِبَ « قريش » الذي تَبْحَثُ عنه .

[طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنا]

تناقل الناسُ نبأ خروج رسُولِ الله « ﷺ » مِنْ « مكّة » ...

فكان المسلمون في « المدينة » – أنصاراً ومهاجرين – يترقبُونَ وُصُوله بَيْن يوْمٍ وليلة ، فكانوا يخرجُونَ إلى ضاحَيِةِ « المدينة » من ناحيةِ : قُباء » عند « ثَنِيَّة الوداع » ينتظرون .

فلما كان يوم وصوله « ﷺ » وقد آنْصرف الناس من موْقع آنتظارهم ... ، إذا بيهوديٍّ في نَخْلَةٍ له يرى الرَّكْب القادم فيصْرخُ بـ « الأوْس » و« الخزْرج » أنْ : هذا جَدُّكم – أي صاحبكم – قَدْ وَصَل ...

فارْتَدَّ الناس سِراعاً من كُلّ ناحيةٍ وجهةٍ ، يتدفّقون من هنا وهُناك كأنَّهُم السَّيْل ، تضيق بهم الطُّرقات .. ، رافعين سَعَف النَّخْل يردّدون بِمَرَحٍ غامرٍ أُهْزوجةً مايزال يتردَّدُ صداها عَبْر السنين إلى يَوْمنا هذا :

طَلَعَ الْبَدْرُ علَيْنا من ثنيّات الوداع
وجب الُشكْر علينا مادعا لِلّه داع
أيُّها المبعوث فينا جئت بالأمْر المطاع
جِئْتَ شَرَّفْتُ المدينة مرحباً ياخَيْر داع

ونزل رسُولُ الله ﷺ في « قُباء » على « بني عمرو بن عوْف » ، وبنى مَسجْدهُ هُناك ، ثم أنْتقل إلى « المدينة » ، وحاوَلَ كثير من الأنْصار أن يَحُوزوا رسُول الله « ﷺ » إليْهم ، ويَشْرُفُوا بضيافتِهِ عندهم ، فُيمسِكُوا بزمام ناقتِهِ ، فكان « عليه الصلاة والسلام » يشكرهم على عاطفتهم الطيبة الكريمة ، ويقول لهم : دَعُوها فإنَّها مأمورة .

ومَضَتِ الناقة في سَيْرِها تَخُبُّ بخفافها فوق ثرى « المدينة » ودروبها حتّى بركتْ في أَرْضٍ فضاءٍ هي مَرْبَدٌ[1] لِـ « سهْل » و« سهيْل ٱبْنَيْ عمرو » ، فاشتراها « ﷺ » منهما ... ، ونزل في ضيافةِ « أبي أيُّوب الأنصاري » – « خالد بن زَيْد » – رضي الله عنه – ريْثما تمَّ بناءُ المسْجد ، وحُجُرات رسُول الله « ﷺ » حوْله .

أَحَبَّ « أبو أيُّوب » أن يُنزل رسُول الله ﷺ في الطابق العُلْوي من دارِهِ ، لِأَنَّه كما قال : لايُطيق أَنْ يكون في مكانٍ يعْلُو مكان رسُول الله « ﷺ » !!! لكنه « عليه الصلاة والسلام » أبى ذلك ، لِأَنَّه سَوْف يستقْبل كثيراً من الناس .. ، فبقاؤُهُ في الطابق الأَرْضي أَيْسر وَأَوْفق ...

انتهى بناء المسجد والْحُجُرات .. ، وكان بسيطاً متواضعاً ، أَعْمِدَتُهُ من جُذوعِ النَّخْل ، وسقْفُهُ من سَعَفها ، وأَرْضُهُ من الْحَصْباء ، وهو الحصى الصّغير ، وجدرانه من اللّبْن ؛ فتحوَّل « عليه الصلاة والسلام » من ضيافةِ « أبي أيُّوب » إلى حُجُراتِهِ حوْل المسْجد .

وكما ترى – ياولدي العزيز – كان المسْجد أوَّل آهتمامات رسُولِ الله ﷺ ، ولهذا دلالةٌ كُبْرى على أَهَمِّيَّة المسجد في الإسلام – أيُّ مسْجد – ، فهو مكان العبادةِ ... والمدْرسة ... وموْضع التّشاوُر ... ، ومُنْطلق القرارات الحاسمة والمصيريَّة ... ومُجْتَمَعُ الشَّمْل ... ، وغير ذلك من المقاصد كثيرٌ وكثير ...

---

(١) المرْبد : الموضع الذي يُجْمع فيه البلح لِيَتَمَّر .

[المدينــة الفاضِلَـة !!!]

ولدي العزيز :

هُناك فَيْلسوفٌ يونانيّ (إغريقي) يُدْعى « أَفْلاطون » ذَهَبَ بِهِ خيالُهَ إلى تَصوُّرِ مدينةٍ فاضلة ، نموذجيَّةٍ في علاقاتها الإنسانية القائمة على العدْل والحق ؛ لاشَرَّ فيها ولاأذى ولا ظُلْم !!! سعيدةً هانئِة ، متعاوِنَةً مُتكاملة ...

وَوَضَعَ أفكاره هذه وتصوراتِهِ في كتاب ...

لكّنه ظَلَّ حِبْراً على وَرَق ، وحُروفاً جامِدَةً لا حياة فيها ...

أما المدينة الفاضلة بِحَقٍّ وصِدْق وواقعية ، **فهي « المدينة المنوَّرةُ »** بَرَزَتْ وظَهَرَتْ إلى الوجودِ مرَّةً واحِدَةً في التاريخ ، وعلى مدى أجْيال عُمْر البشرية ،

لمــاذا ؟

لِتكُونَ على الدّوام نِبْراساً لِلمُسْلمين وللعاملين ؛ **وقُدْوَةً يتأسُّون بها** ويحتَذُون سَبِيلها ، ويَنْهَجُونَ نَهْجَ رائدها وراعيها « محمد بن عبدالله » - صلوات الله وسلامُهُ عليه ...

ولْنَعُدَ الآن إلى مُتابَعَةِ الحديث ، ووصْل ماانْقَطَعَ مِنه ...

فلقد وَجَدَ المسلمون أَنْفُسَهم في أجواء جديدة في « المدينة » ، بكُلِّ ما في كلمةِ الْجِدَةِ من معنىً ، سواء في أوْضاعهم الأمنيَّة ... أو الاجتماعية ... أو السياسيَّة ... أو الاقتصاديّة ... ، أوْ في غير ذلك .

ولقد مارَسَ رسُولُ الله « ﷺ » قيادَتَهُ لهذا المجْتمع على أفْضل ماتكُون الممارسة ، وعلى أَسْمى ماتكُونُ القيادة ...

ولم تَمْضِ عَشْرُ سنواتٍ على مُقامه في « المدينة » ، ثم آنتقالِهِ إلى الرفيق الأعْلى ، حتى كان « عليه الصلاةَ والسّلام » قد طَهَّر أرْض شِبْه الجزيرة العربية من كُلّ معالِم الشرْك والوثنيَّة ، والظُلْم والبغى والعُدوان ، وَوَضَعَ أصحابه على الْمحجَّةِ البيْضاء ... لَيْلها كنهارها ... ، وركّزَ أُسُس دَوْلَةِ الإسلامِ على الحقّ والعدْل .

في عَشْرِ سنواتٍ فَقَط ... !! وهي في عُمْر الزمانِ لا تُقاسُ ولا تُذْكر ...

وسَأَقْضي مَعَكَ – ياولدي العزيز – في الصفحات التّاليات على ذِكْر أَهَمِّ وقائعِ كُلّ سَنَةٍ من تلْك السنوات .. ، في تَسَلْسُلٍ وترابُطٍ ، ليكُون لَكَ – دائماً وأَبَدَاً – في السيرة النبويَّة الشريفة خَيْر أسوةٍ وأعظم قُدْوَة ...

في السَّنَةِ الأولى ...

كان جُلّ هَمِّهِ « ﷺ » أن تكونَ [وَحْدَة] المسلمين وتماسُكهم .. ، على أمْتَنِ مايكون ، لِأَنّها حَجَرُ الزاوية في بناء الأُمم ، ولِأَنَّ الْفرقَةَ والتناحُر سبب كُلّ آنهيارٍ وزوال .

اتجه أوّلاً إلى سَدِّ كُلّ ثَغْرَةٍ يُمكن أن تُسبِّبَ خَلَلاً بَيْن قبيلَتَيْ « الأَوْس » و« الخزرج » – من أهل « المدينة » – والتي كان ينفذ منها دائماً الْعُنْصر اليهوديّ لإشعال النفور والعداوة وإحْكام السَّيْطرة .

ثمّ [آخىٰ] « ﷺ » بَيْن المهاجرين والأنْصار مؤاخاة حيَّةً متينةً ، في الله وفي الإسلام ، ولقد تسابق الناسُ وتنافَسُوا في هذا المضْمار منافَسَةً تجاوَزَتْ كُلّ المقاييس المعروفة عند الْعَرَب في الأَحْلافِ والْعُهُودِ والجوار وغير ذلك ، حتى إنْ الرجُل من أَهْل « المدينة » كان يُقاسِمُ أَخاهُ المهاجريَّ مالَهُ ودارَهُ بل ويعرض على أخيه المهاجرى أجمل زوجتيه ليطلقها ويتزوجها أخوه .

وتذكُرُ لنا كُتُب السِّيرة أسْماءَ بعض المتآخين ، وعلى سبيل المثال : كان « أبوبكْر » و« خارجة بن زيْد » أخويْن ، و« عمر بن الخطاب » و« عُثْبان بن مالكٍ » أخويْن ، و« أبوعُبَيْدة بن الجرّاح » و« سعْد بن مُعاذٍ » و« سلامة بن سلامة بن وقْشٍ » أخويْن ... وهكذا .

وآلتفت « عليه الصلاة والسلام » إلى الْعُنْصر اليهوديّ ..!! فرأى أنّه صاحب نفوذٍ وسلطان ، في المال .. والزراعِة .. ، والمكْر والْغَدْر والدَّهاء ... ، فآتّجه إلى مُعاهَدَةِ اليهود بإقْرارهم على دينهِم وأموالهم وأنْفُسهم ... شَرْط أن لايحالِفُوا عليه عَدُوّاً ... ، وكَتَبَ بَيْنه وبَيْن هؤلاء اليهود كُتُباً ومواثيق .

وعَلَيْنا – ياولدي العزيز – أنْ نُلاحظ ملاحظةً هامةً ، وهي أن رسُول الله « ﷺ » – مُنْذُ البداية – اسْتطاع بماآتاهُ الله تعالى من فَضْلِهِ بِحُسْنِ التقدير والتدبير ، أن يُمْسِكَ بِزمام الأمْر كُلّه في المدينة ... ، وأنْ يكونَ هو الرأْسَ والمرْجِع ...

وَوُلِد للمسلمين في « المدينة » أوَّل مَوْلودٍ ... هُوَ « عبدالله بن الزُّبَيْر » – رضي الله عنهما – ، فَفِرحُوا بِهِ كثيراً ، خاصَّة والده « الزُّبَيْر » وأُمُّه « أسْماءُ » ذات النطاقيْن ... ، الّتي حَملَتْهُ إلى رسُول الله « ﷺ » ، فَسَمّاهُ ... وبارَك عَلَيْه .. ودَعا لَهُ .. ، وكان أوَّلُ شيْءٍ دَخَلَ جَوْف « عبدالله » هُوَ ريقُ رسُولِ الله ﷺ عندما حَنّكَهُ[1] بِتَمْرَةٍ ، والتَّحْنيك « ياولدي – هُوَ : إمْرارُ التّمْرَةِ بعد مضغها على حَنَكِ المَوْلود ، تَقْوِية للثته ، وآسْتِجْلاباً للمادَّةِ السُّكَّرِيّة .

وتزوَّج «ﷺ» – من « عائشِة بنت أبي بكْر » – أم المؤمنين – رضي الله عنها – ...

إذ كان قد خطبها من أبيها « الصِّدّيق » في « مكّة » قَبْل الْهِجْرة ، حين جاءَهُ « جبريلُ » – عليه السلام – بِصُورتها على قَطْعةٍ من حرير ، قائلاً :

ــ هذه زَوْجَتُكَ في الدُّنيا والآخرة ...

لكن تلاحُق الْأَحْداث في « المدينة » وزَحْمَة الآنْشعال ، جَعَلَهُ « ﷺ » في نَجْوةٍ عن تذكُّر هذه الخطبة ...

فلمّا آستَقَرَّ الْأَمْر ، جاءَهُ « أبوبكْر » – رضي الله عنه – على آسْتِحْياءٍ يَقُول مُذَكِراً :

ــ ألا تُرِيدُ أن تَبْني بأَهْلك يارسُولَ الله ؟

وتمَّ الزواج في شَهْرِ « شَوّال » من السنة الْأُولى من الْهِجْرة ... ، وكانَتْ « عائشة » – رضي الله عنها – قد بلغت إحدى عشرة سنةً ؛ وتربَّعتْ في بَيْتِ النبوَّةِ صاحِبَة حُظْوةٍ ومكانة .

[حَيَّ على الصَّــلاة ...]

كان المسلمون في « المدينة » يجتمعُون للصّلاةِ مَعَ رسُول الله ﷺ وَخلْفَهُ بعْضُهُم .. ، فتحدّثُوا في ذلك وناقَشُوا الْأَمْر بحضَرَةِ رسُول الله ﷺ ، ولقد آقْترح بعضهم أن يتّخذوا ناقُوساً كالنصارى ، وآقْتَرح آخرون بُوقاً مِثْل بُوقِ اليهود ، وكانوا يسمُّونَهُ : شُبُّوراً ، لكنَّ كُلّ ذلك لم يرُق لرسُول الله ﷺ ، ولمَ يجْد في نَفْسِهِ هوىَ ...

ثم جاءَه أَحَدُ الصحابة – رضوان الله عليهم – ويُدْعى : « عبدالله بن زيْد » فقال :

ــ يارسُول الله ... إنّهُ طاف بي هذه الليلة طائِف ... مرَّ بي رجُلٌ عليه ثوْبانِ أخْضران يحمِلُ ناقوساً في يده ، فقُلْتُ : يا عبدالله .. أتبيعُ هذا

الناقُوس ؟ فقال : وما تصْنَعُ بِهِ ؟ قُلْتُ : نَدْعُو بِهِ إلى الصّلاة .. ، قال : ألا أَدُلُّك على خَيْرٍ من ذلك !؟ قُلْتُ : وما هُو ؟ قال : تقُول : [الله أكبر الله أكبر ، الله أَكْبَرُ الله أكْبر ، أَشْهَدُ أن لا إلهٰ إلا الله ، أَشْهَدُ أن لا إله إلا الله ، أَشْهَدُ أَنَّ محمداً رسُول الله ، أَشْهَدُ أن محمداً رسُولُ الله ، حيَّ على الصلاة ، حيَّ على الصلاة ، حيَّ على الفلاح ، حيَّ على الفلاح ، الله أكبر الله أكْبر ، لا إلهٰ إلاّ الله] ...

فلمّا أُخْبَرَ بها رسُولَ الله «ﷺ» قال :

[إنها لرؤُيا حقّ – إن شاءَ الله – فَقُمْ مع « بلالٍ » فَأَلْقِها عَلْيه ،فليؤذن بها ، فإنَّهُ أَنْدى مِنْك صَوّتاً] .

فلمّا أذَّن بها « بلال » سَمِعَهُ « عمر بن الخطّاب » – رضي الله عنه – وهُوَ في بَيْتِهِ ، فَخَرَج إلى رسُولِ الله «ﷺ» وهُو يَجُرُّ رداءَه ، وهُوَ يقول :

— يانَبيَّ الله ... والّذي بَعَثَكَ بالْحَقّ لقد رَأَيْتُ مِثْل الذي رأى ...

فقال رسُولُ الله « ﷺ » :

— فلِلّهِ الحمْـد .

[الإذْنُ بالْقِتَـــال ...]

قال الله تعالى في مُحْكَم كتابِهِ المجيد :

﴿ أُذِنَ لِلّذين يُقاتَلُون بِأَنّهم ظُلِمُوا وإنّ الله على نَصْرِهم لَقَدير * الّذين أُخرِجُوا مِنْ ديارِهِم بغيْر حَقٍّ إلآ أن يَقُولُوا ربُّنا الله ولوْلا دَفْعُ الله النّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لهُدِّمتْ صوامِعُ وبِيَعٌ وصَلَواتٌ ومساجد يُذْكَرُ فيها آسْمُ الله كثيراً وَلَيَنْصُرَنَّ الله من يَنصُرَه إنَّ الله لَقَوِيٌّ عزيز ﴾[1] .

---

(١) سورة (الحج) الآيات (٣٩–٤٠) .

ومع مَطْلع العام الثاني من الهجرة ، رَفَعَ رسُول الله « ﷺ » راية الجهاد ، وعَقَدَ اللّواء .. ، وخَرَج من دائرة « المدينة المنوّرة » غازياً في سبيل الله ...

وكان همُّه الأوّل « قريشاً » ... لأَنها بُؤْرَةُ الشِّرْك ، ومَعْدن الْجَهْل ، ومَنْبع التسلُّط والظُّلْمَ ...

فكُلّ معركةٍ جانبيَّةٍ خاضها « عليه الصلاة والسّلام » بِنَفْسِهِ ، أو سيَّر سريَّةً من أصحابه ، – من المهاجرين والأنصار – ، إنّما كان يَهْدِفُ إلى زَعْزَعةِ الموقف القرشيّ ... ، إلى أَنْ يحين حين الحسْم ...

ولـدي العزيز :

ليس القتالُ في الإِسْلام شَهْوة حرْبٍ وتدمير ، ولا حُبَّ تسلُّطٍ وقهْرٍ وآسْتعْباد ، ولا إِراقة دماءٍ وآسْتنْزاف خَيّرات العباد والبلاد ... ، أبداً !!! ، إنّما هُوَ دَفْعُ ظُلّمٍ وردَ آعتبارٍ ، وتيّسير سبيل الناس إلى الحقّ والهُدى .

وقد يكون الدَّفْع والدّفاع – في بعض الأحيان – هجوماً على العدوّ .. ، ولكنْه ليْس المبْدأ الدائم ...

فقد ظُلِم المسلمون في « مكّة » أيّما ظُلْم ، وقُهِروا أيمّا قَهْر ، وفُتِنُوا ... وعُذِّبوا ... ، وسُلِبَتْ أموالهم وديارهم وأملاكهم .. ، وأغتُصبَتْ حُريّاتُهم ... وأُوذِيَ بَعْضُهُم إلى حدٍّ زهق الأَرْواح .. ،

أفلا يحقُّ لهم – والحال هذه – أَنْ يُدافِعُوا عن أَنْفُسهم ، ويردُّوا بَعْض ما سُلِبَ منهم ؟؟ نَعَم ... ، فَقْد ﴿ **أُذِنَ لِلَّذينَ يُقاتَلُون بِأَنَّهم ظُلِمُوا وإِنَّ الله على نَصْرِهم لَقَدير** ﴾

أُولى غزواتِهِ « ﷺ » هي غزوة الأَبْواء » ...

ـــ لاشَكَّ أنك تذْكُر هذا الإسم ، فهو المكان الذي ماتت فيه « آمنة

بنتُ وهْبٍ » – أم النبيِّ «ﷺ» ... – فلقد خَرَج النبيُّ ﷺ في شَهْر « صَفَر » من السنة الثانية للهجرة على رأْس قواتٍ من المسلمين ، وتَرَك في المدينة عاملاً عليها وقائماً بالأَمْر الصحابي الأنصاريّ « سعْد بن عُبادة » – رضي الله عنه –

كان « عليه الصلاة والسلام » يُريدُ أن يغزو « قريشاً » و« بني ضَمْرَةَ » ... ، فسالَمَهُ « بنو ضمْرة » وعَقَد مع سيِّدها « مَخْشِيَّ بن عمرو عَهْداً ...

ثم رَجَعَ « ﷺ » مُكْتفياً بما حقّق .

وأقام في « المدينة » بقيَّة « صَفَرٍ » وقِسْماً من « ربيع الأول » ...

وفي أثناءِ ذلك بعث « عليه الصلاة والسلام » – « عُبَيْدَةَ بن الحارث بن المطلب » في سِتّين مقاتلاً من المهاجرين – ليس فيهم واحد من الأنصار – ؛

فساروا حتى وصلوا إلى ماءٍ بأَرض « الحجاز » ، عند مكانٍ يُدْعى « ثنيّة الحرَّة » ، وهناك وَجَدوا جَمْيعاً عظيماً من « قريش » ...

لكنه لم يَحْدُثْ بَيْن الطرفيْن قِتال ...

وأَظْهر المسلمون قُوَّةً وجَلَداً ... ، ورمى « سَعْدُ بن أبي وقّاصٍ » باتّجاه القُرشيّين بِسَهْمٍ ، فكان أَوَّل سَهْم رُمِيَ به في الإسلام .

ثم انصرف القوْم عن القوْم ، وللمسلمين هَيْبةٌ ...

كما فَرَّ من المشركين إلى المسلمين : « المقدادُ بن عمرو » و« عُتْبَةُ بن غزوان » – وكانا مُسلِمَيْن ، إسْتَغَلاَّ فُرْصَةَ خروج « قريش » فخرجا معها ، فلما تهيّأتْ لهُما فُرْصَةُ الانضمام إلى المسلمين بادرا مُسْرِعيْن .

ثم بَعَثَ « عليه الصلاة والسلام » بَعْثاً آخر بقيادة عمِّهِ « حمزة بن عبدالمطّلب » – رضي الله عنه – إلى شاطىء البحْر الأَحْمر ، في ثلاثين فارساً من المسلمين المهاجرين ...

وهناك الْتقى جَمْعاً من « قريشٍ » بقيادَةِ « أبي جَهْل » .. يبلغ ثلاثمائة ، وحَفَّز كُلٌّ من الطرفيْن لقتال الآخر ، لكنَّ « مَجْدِيَّ بن عمرو الْجُهُنيّ » – سيِّد « جُهَيْنَةَ » توسَّط بَيْنهما ، فأنصرف بعضهم عن بَعْضٍ ، وكان « مَجْديّ » مُوادِعاً مُسالماً ، للمسلمين وللمشركين ... ، غير مُتَحيِّزٍ إلى أيٍّ من الفريقيْن .

وبَلَغَ رسُولَ الله « ﷺ » أن عيراً لقريشٍ ، قافلةً تجارية ، في طريقها إلى « مكّة » ... ، فَخَرَج بنَفْسِهِ « ﷺ » في مائتي راكبٍ ، يريد اعْتراضها ... ، وكان لواءُهُ « ﷺ » مع « سعْد بن أبي وقّاص » ...

فلمّا بَلَغَ مكاناً يُدْعى « بُواط » ... ، وَجَدَ أن الْعِير قد فاتَتْه .. ، فعادَ إلى « المدينة » ، ولم يْحدث قتال .

ثُمّ بَلَغَهُ أَيْضاً نبأٌ قافِلةٍ أُخْرى لِـ « قريش » في الطريق – ، فَخَرَج إليْها .. ، حتى بَلَغَ مكاناً يُدْعى « الْعُشَيْرة » قريباً من « يَنْبُع » على الْبَحْر الأَحْمر ... ، وفاتَتْهُ هي أَيْضاً .. ، وهناك عَقَدَ عَهْداً مع « بني مُدّلِج » و« بني ضَمْرةَ » ... ، ثم عادَ إلى « المدينة » .

وفي إحدى اللّيالي أغارَ بَعْضُ المشركين بقيادةِ رجُلٍ يُدْعى « كرْز بن جابرٍ » على ماشيةٍ للمسلمين في ضاحيةٍ من ضواحي « المدينة » حَيْثُ ترعى .. ، وسطا عليها .. وآسْتَلَبَها ... وفَرَّ بها ، فَخَرجَ « ﷺ » مع بعض المسلمين في طَلَبِهِ ... ، واستمَّر في مطارَدِتِهِ حتى بَلَغَ مكاناً يُدْعى « صَفْوان » قريباً من « بَدْر » ... ، لكن « كرْز بن جابرٍ » نجا بمامَعَهُ من السَّرْح ...

فعاد رسُولُ الله « ﷺ » ومن معه إلى « المدينة » ، وتُسمّى هذه الْغَزْوَةُ : غزوة « بَدْرٍ » الْأولى .

ونلاحظُ – ياولدي العزيز – أنّ هذه الغزوات – التي ذكرْنا – كانَتْ نوْعاً من تأْديب المشركين وإظْهار قوَّةِ المسلمين ، ورادعٍ لبعْض الْأعْراب الذين يُقيمونَ في تلْك النواحي ، وآسْتِرْدادٍ لبعْضِ أموال المهاجرين التي سَطَتْ عليْها « قريش »

ونُلاحِظُ كذلك أن المهاجرين كانُوا هم الْعُنْصر الرئيسيَّ فيها ، دُون الْأنْصار ، لأنهم أصْحاب الثَّأْرِ والأوْلى بِهِ دوْنُ غيرهم .

[﴿ فَوَلِّ وُجْهَكَ شَطَر المسْجِد الحرام .. ﴾]

كان رسُول الله « ﷺ» حتى الشهر السابع عشر من قدومه إلى « المدينة » مهاجراً يَتَّخِذُ « بَيْت المقدْس » قِبْلَةً له ... ، وكان ذلك مدْعاة فِتْنَةٍ من اليهود ... وسَفَهٍ وسُخْرية ...

إذْ كانُوا يردِّدُون : إذا كان « محمد » كما يَقُول بِأَنّ دينه هُو الإسلام ، الذي هُوَ دين « إسماعيل » و« إبراهيم » – عليْهما السلام – ، وأنَّه وريثُهما ، فكيْف يُصَلِّي إلى « بَيْتِ المقْدس » الذي هُو قبلة اليهود ، ولا يُصَلِّي إلى « الكعْبة » ...؟!

فكان « عليه الصلاة والسَّلام » يتحرَّج ويتضايق من قوّلهم هذا ...

ورُوِيَ أنه ﷺ كان يَخْرجَ أحياناً في اللَّيْل إلى ضواحي المدينة ... يَتطلَّع إلى السَّماء ... ، وينظر فيها .. ، ينتظر الْفَرَجَ في هذا الْأمر .

فلمَّا كانَتْ ليْلة مُنْتصف شَهْر « شعْبان » ، أنزل الله تعالى على قلْب رسُولِهِ « ﷺ » آياتٍ بيِّناتٍ تقول :

﴿ قدْ نرى تقلُّب وَجْهِكَ في السَّماء فَلَنُوَلِّيَنَّك قِبْلةً ترضاها فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْر الْمَسْجِدِ الحرام ... ﴾[1]

وآنْحَلَّت الْعُقْدَةُ ... وتوجَّه المسلمون في صلاتِهِم شَطْر « الكعْبة » الْمُشرَّفة ... ، وخرست أَلْسِنَةُ المشركين والمنافقين على حدٍّ سواء .

وإنّما لم يكُن « ﷺ » ليُصَلّي إليْها من قَبْل تحرُّجاً أَيْضاً .. ، بسبب مادَنّسها بِهِ الجاهليُّون من رسُومٍ في جَوْفها على جُدْرانها ... ، وأَصْنامٍ وبأَوْثانٍ ملئوا بها المسْجِدَ الحرام ... حتى بَلَغَتْ ثلاثمائةٍ وَسِتّين صَنَماً !!!

وفُرِض أَيْضاً في هذا العام صيامُ شَهْر « رمضان » ...

يقُول الله تعالى :

﴿ ياأيُّها الّذين آمنوا كُتبَ عليْكُمُ الصِّيامُ كما كُتِبَ على الّذين من قَبْلِكم لعلَّكُم تتّقون ﴾[2]

ويقول عزَّ من قائل :

﴿ شَهْر رمضان الذي أُنْزِل فيه القُرآن هُدىً للنّاسِ وبيِّناتٍ من الهُدى والْفُرْقان * فَمَنْ شَهِدَ مِنْكم الشّهْر فَلْيصُمْهُ ... ﴾[3]

[يَـوْمُ الفُرْقـان]

ثم بَلَغَ رسُولَ الله ﷺ أَنَّ قافلةً لِـ « قريش » قادمة من الشام ، في تجارةٍ عظيمة ، يقودُها « أبوسُفْيان » - « صَخْر بن حَرْب بن أُمَيَّة » ؛ فقال « عليه الصلاة والسلام » لأصحابِهِ :

---

(١) سورة (البقرة) الآية (١٤٤) .
(٢) سورة (البقرة) الآية (١٨٣) .
(٣) سورة (البقرة) الآية (١٨٥) .

— [هذه عير قُرَيْش ... فيها أَمْوالهم فأخرُجوا إلَيْها لَعَلَّ الله يُنفِلّكُمُوها ..]

أي : يَجْعلها لكُم نافلةً ، — أي : عطِّية .

فأسْتجاب بَعْضُ المسلمين ، وثقل البعض الآخر ، لِأَنَّهم لم يظُنُّوا حُدوث قتالٍ .

وخَرَج « عليه الصلاة والسّلام » من المدينة على رَأْس ثلاثمائةٍ وبضْعة عَشَرَ نفراً من المسلمين ؛ وكان « أبوسُفْيان » وهُو في الطريق إلى « مكة » يَتحَّسسُ أَخْبار المسلمين ويتتبَّعُها ... ، ليتفادى الوقوع في المحظور ، ثم عرف بأنَّ رسُول الله ﷺ قد خَرَج له ... ، فخالَفَ الطريق المعْهود .. ، ثم بَعَثَ رسُولاً على جناح السُّرْعة إلى « قريش » يَسْتنْفِرَهم لحماية أموالهم وتجارتهم ... ، فهبُّوا جميعاً في حميَّةٍ جاهليّةٍ ، وعلى قيادتهم كبراء الكُفْر والضلالة أَمْثالُ « أبي جَهْل » و« عُتْبَةُ بن ربيعة » و« أُميَّة بن خَلَفٍ » وغيرهم .

فلّما كانُوا قريباً مِنْ « بَدْر » بلغهم أن القافلة نَجَتْ ، فقال بعضهم : نعودُ إلى « مكّة » حيث أن أمْوالنا قد سَلِمَتْ ، ولم يعُد هُناك مُوجب للاستمْرار في التَّقدُّم ...

فأنْتَفَض إبْليسهُم — «أبوجهل» — مُعارضاً وقال :

— والله لا نَرْجعُ حتّى نردَ « بَدْراً » — أي : نأتيها — ، فنقيم علَيْها ثلاثاً ، فَنَنْحَرُ الْجُزُر[1] ، ونَطْعَم الطعام ونَسْقى الْخَمْر وتعْزِفُ علَيْنا الْقيانُ[2] ، وتَسْمع العرب بمسيرنا وجَمْعِنا فلا يزالُون يهابُوننا ...

---

(١) جَمْع جَزُور : الْجَملَ .

(٢) جَمْع : قَيْنة ، وهي الْمُغنِّية .

وكان عدد المشركين ما بَيْن التّسعمائةِ إلى الألْف ... ، ثلاثة أضعاف المسلمين .

وبالإضافةِ إلى قلّة عَدد المسلمين ، فقد كانُوا أيْضاً في عُدَّةٍ قليلة ضعيفة ، كان معهم سبعون بعيراً وفَرَسانِ ... ، يركبُونها بالتّناوب ، وقليلٌ منهم من كان عليه دِرْع .

وعلم رسُول الله بخروج « قريش » هذا ... ، وإصْرارهم على السَّيْر والمواجهة ، بعد أنْ أُفلِتَتِ العير بما عَلَيْها ...

هنا - ياولدي العزيز - تَبَدَّل الموقف ...

فأحبَّ « عليه الصلاة والسلام » أن يستشير أصحابه في الأمر ... ، خاصَّةً الأنصار ، الذين عاهدوه على الحماية من كل سوءٍ وأذى يمكن أن يتعرَّض له وهُوَ في « المدينة » .. لاخارجها ...

فقال « ﷺ » :

ــ أشيروا عليَّ أيُّها الناس !!!

فقام « أبوبكر » - رضي الله عنه - فقالَ ... وأَحْسَنَ .. ، ثم قامَ « عمر » رضي الله عنه - فقال أيضاً .. وأَحْسَنَ ... ، ثمَ قام «المقداد بن عمرو » فقال وأطنب .. وأَحْسَن ؛ قال :

ــ يارسُول الله امْضِ لما أراك الله ، فَنَحْنُ معك .. ، والله لا نقُولُ لَكَ كما قالَتْ « بَنُو إسرائيل » لِـ « موسى » : ﴿ **اذْهَبْ أَنْتَ وربُّك فقاتِلا إنّا هاهُنا قاعِدون** ﴾ ولكن : اذْهَبْ أَنْتَ وربُّك فقاتلا إنّا مَعكُما مقاتِلُون ، فوالّذي بَعَثَكَ بالْحَقّ لوْسِرْت بنا إلى « بَرْكِ الْغماد »[1] لجالدْنا معك من دونِهِ حتّى تَبْلُغه ...

---

(١) موضِعٌ قريبٌ من الْيَمَنَ .

فقال لهُ الرسُول « ﷺ » خَيْراً وَدَعا لَهُ بخَيْر .

كان كُلّ الذين تَكَلَّمُوا حتى اللحظة من المهاجرين ... ، وإنما يُريد «ﷺ» أن يتبيَّن موْقف الأنْصار ، ويَسمع رَأْيَهُم ، فقال مكرِّراً :

— أَشيرُوا عليَّ أَيُّها الناس !!!

فقام « سعْد بن مُعاذٍ » – رضي الله عنه – وقال :

— لَكأَنَّكَ تريدُنا يا رسُول الله ؟

فقال «ﷺ» :

— أَجَلْ ...

فقال « سعْد » :

(لقد آمنَا بِكَ وصَدَّقْناك ، وشهِدْنا أَنَّ ماجِئْتَ به هُوَ الحقّ ، وبايعناك على ذلك عُهُودنا ومواثيقنا على السّمع والطاعة لَك ، فَامْضِ يارسُول الله لما أَرَدْتُ ، فَنَحْنُ مَعَكَ ، فَوَالّذي بَعْثك بالحقِّ لو اسْتَعْرضْت بنا هذا الْبَحْر فخضته لخُضْناهُ مَعَكَ ، ما تخلَّف مِنّا رَجُلٌ واحد ، ومانَكْرَهُ أن تَلْقى بنا عدُوَّنا غدا ... ، إنّا لَصُبُرٌ في الحَرْبُ ، صَدُقٌ عند اللّقاء ، ولعلَّ الله يُريك مِنّا ما تَقَرَّ بِهِ عيْنُك ، فَسرِ على بَركةِ الله) .

فَسُرَّ رسُولُ الله «ﷺ» من قوْل « سعْد » ، ثم قال :

— سيروا على بركة الله وأَبْشروا ... فإنّ الله – عزّ وَجَلّ – قد وَعَدني إحدى الطائفَتيْن ، (يعني : القافلة بما فيها ، أو النَّصْر على الأَعداء) ....

والله لكأنّي الآن أَنْظُر إلى مصارِعِ القوْم ...

بهذه الروح الفيّاضة بالإيمان ، والعزْم المتين ، مضى المسلمون في طريق المواجهة ، حتى نَزَلُوا « بدْراً » في العّدْوَةِ الدُّنيا .. ، ثم غَيَّروا موقعهم إلى

أَقْرَب مكانٍ من الماء ، بإشارةٍ من « الْحُباب بن المنذر » الأنصاريّ ، حَيْثُ شقُوا هُناك حَوْضاً ، ليشربُوا ويَسْقُوا عيرهم ... ويمنعُوا الماءَ عن العدوّ ...

واستطلَعَ رسُولُ الله ﷺ عن عدد المشركين ، فَعَرَف أَنَّهم بَيْن التّسعمائة إلى الألْف فلمّا بَلَغُوا « بَدْراً » نزلُوا بالْعُدْوَةِ الْقُصْوى ...

والعُدْوة الدُّنيا أَو الْقُصَوى تعْبيرانِ يقْصَدُ بِهما القُرْب والبُعْد من « بدْرٍ » – الْقَرْية – .

وأقام المسلمون لرسُولِ الله « ﷺ » عريشاً ، خيمْةً ؛ إذ قال لهُ « سعْد بن مُعاذٍ » :

ــ (يانبيَّ الله ... ألا نَبْني لَكَ عريشاً تكُونُ فيه ، ونُعِدُّ عِنْدَكَ رطائِبَكَ ، ثُمَّ نلْقى عدوَّنا ، فإن أعزّنا الله وأَظْهَرَنا على عَدُوِّنا ، كان ذلك ما أَحْبَبْنا ، وإن كانتِ الأُخرى – يعني الهزيمة – ، جَلَسْتَ على ركائِبِك فَلَحِقْتَ بِمَنْ وراءَنا من قوْمنا ، فَقَدْ تخلَّف عَنْك أقوام مانَحْنُ بأَشدّ حُبّاً لَكَ مِنْهُم ، ولوْ ظَنّوا أَنَّك تلْقى قرْباً ما تخلَّفُوا عَنْك ، يَمْنَعُك الله بِهم ، يُناصِحُونَكَ ويُجاهِدون معك)

وسوّى رسُولُ الله « ﷺ » صفوف أصحابِهِ وعدَّلها للقتال ، ثم تَوَجَّه إلى الله تعالى ضارِعاً داعياً ، فقال :

ــ [اللهُمَّ هذه « قريش » قد أَتَتْ بخُيْلها وخيلائها تريدُ أن تُكذِّبُ رسُولك ، اللهُمَّ فَنصرُك الذي وَعَدْتني ، اللهُم إنْ تهْلَكَ هذه العُصابة لا تُعبَدَ في الأَرْض ...]

ومع تصاعُد حرارة الدُّعاء إلى السَّماء ، أَنْزَل الله تعالى جُنْدَهُ من الملائكة ، لتثبيت قُلُوب الذين آمنُوا وتأْييدهم ، والقتال إلى جانِبِهم .

يقول الله تعالى :

﴿ إذْ تستغيثُونَ ربَّكُم فاسْتجاب لكُم أنّي مُمِدُّكم بألْفٍ من الملائكة مُرْدفين * وماجَعَلَهُ إلاّ بُشرى لكُم ولِتَطْمئِنَّ به قلوبكم وما النّصْر إلاّ من عِنْد الله إنّ الله عزيزٌ حكيم ﴾[1] .

اسْتَبَدَّ العطش الشديد بالمشركين ... في لظى الحرّ وشِدَّة المُوقف ، فأقْسَمَ أَحَدُهم ، وهو « الأسْوَدُ بن عبد الأسَد » أن يأتي الحوْض الذي بناهُ المسلمون على الماء ، فإمّا أن يَشْرَب ... أوْ يَهْدم الحوْض ... أويَمُوتَ دُونَهُ !!!

وخَرَج على فَرَسِهِ يَعْدو ...

فتلقّاهُ « حَمْزَةُ بن عبدالمطلب » ، فَضَرَبَهُ بِسَيْفهِ قريباً من الحوْض ، فَأَصاب رِجْلَهُ ، فراحتْ تَشْخُبُ دَماً ...

وأَلْهَبَ مَنْظر الدماء حَمِيَّة المشركين وطاش صوابُهمَ ، فَنَزَل إلى المْيدانِ :

« عُتبَةُ بن ربيعة » وأَخُوهُ « شَيْبة » وابْنه « الوليد » ، وطلبُوا من المسلمين المبارزة ، فأشار رسُولُ الله ﷺ إلى « حمزة » و« عليّ » و« عُبَيْدة بن الحارث» أَنْ يَخْرجوا إليهم ويُواجهُوهم ، فَبرزوا لهم ... وقاتلُوهم حتى صَرَعُوهم ...

ثمَّ كان الألْتحام ...

لقد كان قتال المسلمين لله ... وقتال الكافرين للطاغوت ...

ودارت رحى معركةٍ تساقطت فيها رءوس الكافرين وأفْذاذهم واحداً تلْو الآخر ، مَصْرِع « أبوجَهْل » و« أمُيّة بن خَلِف » و« أبوالبختري بن هشام » .. وغيرهم ، ودارتِ الدائرة على « قريش » ...

---

(١) سورة (الأنفال) الآيات (٩-١٠) .

فأُسر منْهم نحْو سَبْعين ، وقُتِلَ عددٌ مِثْله ، وفَرَّ الباقُون ... وخلَّفُوا وراءَهم كثيراً من المغانم والْأَسْلاب .

وكان لِلنَبأ دويٌّ هائل ، سواء في « مكّة » أو في « المدينة » ، على اختلافِ رُدّ الْفِعل ، فقد قامت في « مكة » المناحات ... ، وأما في « المدينة » فقد هلَّل المسلمون وكبَروا .. ، وفرحُوا بنَصْر الله .. ، أما اليهود من أهلها فقد بأتُوا في حَنَقٍ وغَيْظ ...

﴿ قُلْ مُوتُوا بَغَيْظِكُم ... ﴾ .

وافّتدى الأسّرى أنْفُسهم بالمال ، وجُعِلَ الْقَتْلى في قليبٍ ... في حُفْرةٍ عظيمة ... تكدّسَتْ فيها جُثَثُهُم ... ، ووزَعَتِ المغانم على المحاربين الْأَبْطال .

[« السَّـويق » وَرَدَّةُ الْفِعْـل ...]

وكانَتْ رَدَّة الْفِعْل على هزيمة « بَدْرٍ » سريعةَ عند القرشيين ، الذين فَقَدوا مُعْظم قياداتهم ، فَبرزَ دَوْرُ « أبي سفيان » القياديّ .. ، كما فَقدُوا كثيراً من هَيْبتهم ...

فَأَقْسَم « أبوسُفَيان » أَنْ لايَمَسَّ الماءُ جِسْمَهُ حتى يَثْأَر لِقَتْلى « بَدْرٍ » ..! ثُمَّ خَرَج من « مكة » في مائتيْ فارسٍ من المشركين ، حتى نَزَل قريباً من « المدينة » ... ، وعسْكَرَ هُناك ، ثُمَّ دَخَلَ لَيْلاً بمُفْرَدِه إلى حيّ « بني النّضير » من اليهود ، يُريد أَنْ يُكلِّم سيّدهُم « حُيَيِّ بن أَخْطب » لعلَّهُ يجدُ لديْه عوْناً أَوْ مساعدة ، فَرَفض الأخيرُ آستقبْالَهُ ... ، فَذَهب إلى زعيم آخر من زَعماءِ اليهود ، هُو « سلاّم بن مِشْكم » ، فآستضافَهُ هذا ... وآستقْبَلَهُ .. ، وزوّده ببعْضِ المعلومات عن المسلمين ...

وهذا هُوَ كُلّ ماآستطاع « أبوسُفْيان » الحصول عليه من اليهود !!!

ثُمَّ رَجَع إلى أصحابِهِ في معسكرهم خالِيَ الوِفاضِ ... لم يَنَلْ خَيْراً ...

وفي اللَّيْلة التّالية دَفَعَ ببعْضٍ من معه إلى ضاحيةٍ من ضواحي المدينة ، فأغارُوا على بعض الأراضي الزراعيّةِ ... فَخَرَّبوها ... ، ثُمَّ قَتَلُوا أَحَدَ الأَنْصار ... ، ثُمَّ فَرّوا هاربين ...

وهبَّ المسْلمون بقيادَةِ رسُول الله « ﷺ » على صَوْتِ آسْتغاثةٍ يَتعقَّبُون المغيرين ، فَلَمْ يُدْركُوهم ... ، غَيْر أَنَّهم وجَدُوا طعاماً كثيراً من « السَّويق » قد تَرَكَهُ المشركون وراءَهم ... ، و« السَّويق » طعام يُصْنَعُ من دقيقٍ خشنٍ بالسَّمْن ...

وسُمِّيت هذه الغزوة بـ « غزوةِ السَّويق »

ومِمّا هُوَ جديرٌ بالذِّكْر والملاحظة – ياعزيزي – مدى جُبْن « أبي سُفْيان » ومنْ معه ، نَلْحَظُ ذلك في كُلّ حركةٍ من حركاتهم ، وكُلُ تصرُّفٍ من تصرُّفاتهم ...

وأَيْضاً ... ، إلى أيِّ مدىً كان « أبوسُفْيان » باراً وصادِقاً في قَسَمِهِ ويَمِينِهِ !!!

[بَيْنَ « بَدْرٍ » و« أُحُدٍ »]

كان من « بَدْرٍ » إلى « أُحُد » كثير من الوقائع والأَحْداث ... وكُلُّها مُهِمٌّ وأساسيّ ... فَقد وقعَت غزوة « ذي أقر » ... ، خاضها رسُول الله ﷺ بإخْوانِهِ المسلمين في ديار « نَجْدٍ » مع نهاية شهْر « ذي الحجَّة » أَوْ أوائل شهْر « صَفَر » ... مع بداية العام الثالث لِلهِجْرة ...

وسبَبُها أن قبيلة « غطفان » جَمَعَتْ جموعها في ذلك المكان القصيّ البعيد عن المدينة ، تريدُ أن تَغْزو المسلمين في عُقْرِ دارهم ... لعلَّها في تصوُّرها تكُون الوارثة لزعامة « قُرَيْش » ...

ففاجأهم رسُول الله ﷺ بمبارزتِهِم وغَزْوهم ...

وعليْك – يابني العزيز – أن تلاحِظ أَمْرًا هاماً ، ولسوْف يتأكَّدُ لك ذلك ، أَنْ رسُول الله « ﷺ » كان يُفاجيء عدوّه في أكثر الأَحيان ، قَبْل أن يُكْمل آسْتِعداده ... ، وذلك من مميِّزات قيادتِهِ النّاجحة ... « ﷺ » ... ؛ إذ إنّ من المبادىء العسكرّية الهامة ، أنّ الهجوم خيْر وسائل الدِّفاع !!!

وحين وصل المسلمون إلى « ذي أقر » فَرَّ « الغطفانيُّون » إلى رءوس الجبال يَعْتِصُمِون بها ، ولم يُواجِهُوا المسلمين في المَيْدان ...

وصادُفَ أَنْ أَمْطرت السّماء ، وآبْتَلَّ ثوْب النبيّ « ﷺ » ، فَنَشَرَهُ على شَجَرةٍ لِيَجفَّ ، وعلَّق سَيْفَهُ بغُصْنٍ من الشَّجرةِ ، وتوَسَّدَ حَجَراً ... يستريحُ قليلاً ...

فَخَطَر لِأَحَدَ الغطفانيّين المشركين ، هو قائدهـم وزعيمُهـم .. ، « غَوْرَثُ بن الحارث » أن يَغْدِرَ « برسُول الله ﷺ ، وشجَّعَهُ قَوْمُه على ذلك ... ، فتقّدم بِحَذِرٍ وخِفْيةٍ ... حتى قام عِنْد رأْس رسُول الله ﷺ وبِيَدِهِ سَيْف صقيل ... ،ثم رَفَعهُ وقال :

— يا « مُحَمْد » مَنْ يَمْنَعُك مِني الْيَوْم ؟؟

فأجابَهُ « ﷺ » واثقاً .. آمناً ... مُطْمئناً ...

— الله ...

وماكاد « عليه الصلاة والسلام » يلْفظ اسْم الجلالة حتى أُرْتِجَ على « غَوْرَث » ... ، وارتجف آرْتَجافاً شديداً ... ، وسَقطَ السَّيْف من يَدِه ،

فَأَخَذَهُ ﷺ وشَهَرَهُ في وَجْهِ « غَوْرث » وقال له :

— مَنْ يَمْنَعَك مِنّي ..؟

قال :

ــ لا أَحَد ... ، وأنا أَشْهَدُ أن لا إلهٰ إلاّ الله ، وأَنَّك يا « محمد » رسُول الله ... ، فَعَفا عَنْه ،

وعادَ « غوْرَثُ » إلى قَوْمه يحْكي لهُم حكايتِه ، ويَدْعُوهم إلى الإسلام ... ، ورَجَعَ رسُولُ الله ﷺ بالمسلمين إلى « المدينة » ، وكفى الله المؤمنينَ القتال .

* * *

[الْيَهُودُ والْغَدْر]

كان اليهودُ خلال الأَعْوام الماضية يُمّسِكُون أَنْفُسهُم ... ، وإنْ أَظْهروا في بَعْضِ الْأَحيانِ عداءً لِلْمُسْلمين ... ، فلعلَّهُم كانُوا يَنْتَظِرون الفُرْصَةَ المؤاتية لِلْغَدْر الذي تأصل في نفوسهم ، وجُبِلُوا عليه ... ، وهذه هي الحقيقة .

وأَرْجُو – ياولدي العزيز – أَنْ لا يُداخِلَك مِّما عَرَضْنا تَصَوُّر بِأَنّ الْقِتال وحده كان مِحْوَرَ حياةِ المسلمين ... ، لاهَمَّ لهُم غَيْرُه ... ، أَبَداً .. !! بل كان هناك التَّشريع والتَّنْظيم والتدبير ، واستحكام أَمْر المْجتَمع الإسلاميّ على أُسُسٍ من البناء السليم ، القويُ المتين ، في كُلّ شأن وأَمْر .

وعلى سبيل المثال ... في مجال تَنْظيم العلاقات الاجتماعيَّة ، ودَرْءِ خَطَرِ الفتْنة عن الناس ، وطهارة المجتمع ، أَنْزل الله تعالى تَشْريع الحجاب ...

من هُنا – ياعزيزي – كان سبب غزوة « بني قَيْنُقاع » أَوَّل اليهود غَدْراً بالمسلمين ، إذْ حَضَرت آمْرأة مسلمة من البادية ، إلى سُوق الصّاغةِ في حيّ « بني قيْنُقاع » ... ، تريدُ أَنْ تَبْتاعَ حُلِيّاً ... ، وهي ضاربةُ الحجاب .

فلّما دَخَلَتْ دُكان أَحَدِ الصّاغةِ ... راوَدَها الصائِغُ على خَلْعِ الحجاب ، فَلَمْ تَفْعل ، وتجمَّع حولها بعض اليهود يَسْخرُونَ منها ويَهزءون بها ...، كما عَمَدَ

إلى ربْط طرفِ غطاء رأْسها بِطَرَفِ المقعد الذي تَجْلس عليه ، فلما أرادَتَ القيام انكشَفْت عوْرتُها .. وبدا شَعْرُها .. ، فصاحَتّ وصَرَخَتْ ... وولْوَلَتْ ... ، فَوثَبَ رجُلٌ من المسلمين – تصادَفَ وَجُودُهُ هناك – على اليهوديّ فقتله ... ، وتكاثر اليهودُ عَلى الْمُسْلم الشَّهْم وفَتَكُوا بِهِ ...

فَخَرَجَ إليهم رسُول الله ﷺ ، فحاصَرَهُم مدّة خمسة عشر يَوْماً ، حتى نزلُوا على حُكْمِهِ .

* * *

[جــزاءً وفــاقا ...]

كان « كعْب بن الأشرف » يهوديّاً ينْتَسِبُ من ناحية أُمِّهِ إلى الْعَرَب ، ثَرِيّاً فصيحاً شاعراً ... ، يَسكُنُ في حِصْنٍ لهُ ...

وكان وسيماً مُغْروراً ... ، شديد الحقْد على المسلمين ، يَقُول فيهم الشَعْرُ الفاحش ، فلّما كانَتْ غَزْوة « بدْرٍ » وهزيمة المشركين .. ، ذهب إلى « مكة » يحرِّض قريْشاً على المسلمين ، والثَّأْر منهم ... ، ولقد أُكْثَر من نَظْم القصائِدِ في التعريض بالمؤمناتِ المحصناتِ من نساء المسلمين .. ، ولم يرْتدع عن ذلك رغْم التَّحْذير والتّنبيه والإنْذار ، فَأَهْدَر رسُول الله « ﷺ » « دَمَ « كعْب » ... لسبب غدْرِهِ وخيانتِهِ وفُحْشِهِ ...

فقال « عليه الصلاة والسّلام » ذات يَوْمٍ لأصحابِهِ :

— مَنْ لي بـ « ابنِ الأَشْرَف » ؟؟

فقال الصحابي الْبَطَل ، الفدائيُّ العظيم « محمد بن مَسْلَمَة » – رضي الله عنه – :

— أنا لَكَ بِهِ يا رسُولُ الله ...

ثُمّ تواعَدَ « محمد بن مسلمة » مع أَرْبعةٍ من إخوانِهِ هم : « أَبُو نائِلة » و« عبّاد بن بِشْر » و« الحارث بن أوْس » و« أبوعَبْس بن جَبْر » على قَتْل « كعْب » والخلاص منه ، ثُمّ وضَعُوا خُطّتهم ...

جاءوا إلى « كعْب » في حصنه ، وقدَّمُوا « أبائلة » ليتحدَّث بأسمهم مع « كعْب » ، – فقد كان أخاً له من الرّضاع – ؛ قال « أبونائلة » لِـ « كعْب » بعد أن نادى عليّه :

ـــ لقد جِئْتُكَ في حاجةٍ يا ... أَخي ...

فسَأَلَهُ « كعْبٌ » عَنْها ، فقال : « أبو نائلة » أَنّهُ بحاجةٍ ماسّةٍ هُو ومن معه من إخوانِهِ إلى المال ، والسَّبَبُ هُوَ أَنَّ مجيء « محمد » – ﷺ – إلى « المدينة » كان شؤما ووبالاً عَلَيْهم ، إذِ آفْتقروا : أَشَدُّ الفقْر ...

(وكان ذلك مخادعةً من « أبي نائلة » لِـ « كعْب » وآسْتِدْراجاً)

قال « كعْبٍ » :

ـــ إذاً ترهنوني أبناءَكم ...

فقالُوا :

ـــ أتُريدُ – يا « كعْب » – أن تعَيبَ علَيْنا الْعَرَبُ ذلك ؟؟ نرهنك السِّلاح ...

آتَّفَقُّوا على ذلك ...

ثم جاءوه في الليلة الثّانية ، وقدَّمُوا إليه السّلاح .. ، فَنَزَل إلَيْهم بالمال اللازم ، ثم طَلَبُوا إليْه أن يتمشُّوا قليلاً ، ليستْمتِعُوا بِجَوِّ اللَّيْل السّاحر ...

فوافَقَهم .. ، وساروا ...

فلمّا مَضُوا بعيداً ، انْقضُّوا عَلَيْه وأَثْخَنوهُ جراحاً ، ثُمّ طعنَهُ « محمد بن

مسلمة » طعنةً نافِذَةً في صَدْرِهِ أَخْرَسَتْ لسانَهُ إلى الْأَبَد ، وآحْتَزُّوا رَأْسَهُ وحملُوها إلى رسُول الله ﷺ ...

[غـزْوَةُ « أُحُـد »]

وفي شهر « شوال » سنة ثلاثٍ من الهجرة كانَتْ « غزوة أُحُدٍ » ...

ومن هذه الغزوة – ياولدي العزيز – ، بِوَقائعها ونتائجها ، نتعلَّم كثيراً من الدروس والْعِبَر ، أَرْجُو أن تُدْركها من خلال العرْض – بإذن الله تعالى – ..

لقد كانت جُروح « بدْرٍ » عميقة الأثر في نفوسِ القرشيّين ، الموْتورين الحاقدين ، من قَتْلى ... ، وأَسْرى ... ، وضياع أَمْوال ... ، فَأَخذوا يُعِدُّون العُدّة للثّأْر من المسلمين ، خصوصاً وأَنَّ قَسَمَ « أبي سُفْيان » – كما عَلِمْتَ – لم يُحقِّق شيْئاً في غَزْوة « السَّويق » وذَهَبَ مع الريح .

فَوَعَد « جُبَيْرُ بن مُطْعم » غُلاماً له حبشيّاً يُدْعى « وَحْشِيَّ بْنَ حرْبٍ » يَقْذِف بالْحَرْبةِ فلا يُخْطىء .. ، إن هُوَ قَتَل « حَمْزَة بن عبدالمطّلب » يكُونُ حُرّاً ...

فكانت « هِنْد بن عُتْبَةَ بن ربيعة » كُلّما مرَّتْ بـ « وَحْشِيٍّ » تَقُول له مُحَرِّضةً :

— اشْفِ واشْتَفِ « أبا دَسْمة »

ذلك أن « حمزة » – رضي الله عنه – كان فارس الإسلام بلامنازعٍ يوْم « بَدْر » ، وقد فَعَلَ الأفاعيل بـ « قريش » ؛

وهكذا سارت الأمور في « قريش » للاستعْداد ليوْم الثَّأْر على قدمٍ

وساق ، وكان الشُّعراء منهم يذْكون حماس الحقْد في نفوس الناس بِأشْعارهم ، أَمْثال « أبي عَزَّة الْجُمَحِيّ » الذي كان يَقُول :

أَيا «بني عَبْد مناة» الرُّزام[1] أَلَسْتُم حُماةٌ وأبوكُم حامِ
لايَعْدُوَنّي نَصْركم بعد العام لاتُسْلِموني ، لايَحِلّ إِسْلامي

وخرجَتْ « قريش » من « مكة » بعد أَنْ أَكْملت آستعْدادها ، وآستَنْفَرَتْ حُلَفاءَها من أَهْل « تِهامة » ، ومن « كِنانَة » .. وغيرهم .

خرجَتْ بِحَدِّها وحديدها ، وبَقضِّها وقضيضها ، حتى إن أكثر الرجال خَرَجُوا بنسائِهم معهم حَفْزاً لِلذَّوْد عن الْأَعْراضِ والْأَنْفُس ...

وساروا حتى نزلُوا عِنْد سَفْح جَبَل « أُحُد » – شمالي المدينة – .

وكان رسُولُ الله ﷺ قد تشاوَرَ مع أصحابِهِ حين بلغه خروج « قريش » ، وكان من رَأْيِهِ « عليه الصلاة والسلام » أن يتحصَّن المسلمون داخل المدينة ، ولا يخْرُجُوا منها ، إلاّ أن طائفة من شبابِ المسلمين غَلَبَهم الحماس ، خصوصاً أولئك الذين لم يَشْهدوا بَدْراً ولم يَحُوزُوا شَرَف الْقتال فيها ، رَأَوا أن يَخْرُجُوا لِلقاءِ عدوِّهم ... ، فلا يظن الأعداءُ أَنَّ بِهِم جُبْناً وخَوْفاً ...

وكان « حَمْزَةُ » – رضي الله عَنْه – أَكْثَرُ المسلمين حماساً للخروج ...

فَنَزل رسُولُ ﷺ عِنْد رَأْيهم على كُرْهٍ منه ، ثُمّ قام فَلَبِسَ دِرْعَهُ ...

فقال بَعْضُهُم لِبَعْضٍ :

ـــ لقد أَغْضَبْتُم وأَكْرَهْتُم رسُولُ الله « ﷺ » :

فلمّا خَرَج إِلَيْهم ، آعْتذروا وتراجَعُوا .. ، فقال لهم « ﷺ » :

(١) الرُّزام : الغالبون الثابتون .

— [لَيْس لَنِبيٍّ لَبِسَ لأْمَتَهُ لِلْحَرْب أن يَخلعها حتّى يَفْصِل الله بَيْنَهُ وبَيْن عَدُوِّه]

واللَّأْمَةُ – ياولدي العزيز – هي لباسُ الحرْب ، من دِرْعٍ وخُوذَةٍ وغَيْرها ...

ومَمّا هُو جديرٌ بالرواية ، أن رسُول الله « ﷺ » كان قد رأى في ليْلةٍ سابقةٍ رؤيا ، أَخْبَرَ بها أصحابَهُ ، فقال :

— قد رَأَيْتُ – والله – خَيْراً ، رَأَيْتُ بَقَراً تُذَبَّح ، ورَأَيْتُ في ذُباب[1] سَيْفي ثلْماً[2] ، ورأَيْتُ أني قد أَدْخَلْتُ يدي في دِرْعٍ حصينةٍ – فَأَوَّلْتُها « المدينة » ...

والْبَقَرُ المذبَّح ... كثرة الْقَتْلى ، والثَّلْم في السَّيْف فُقْدان أَحَد أَهْلِهِ وخاصَّتِهِ ...

وخَرَج « عليه الصلاة والسلام » في كامل تعْبئةٍ لِقُوّاتِهِ ، فلمَّا كانُوا في بَعْض الطريق تخلّى عَنْهُم المنافقون ورَجَعُوا إلى « المدينة » ، وعلى رَأْسِهِم « عبدالله بن أُبَيّ بن سَلُول »

ورتَّب « عَلَيْه الصلاة والسلام » قُواتِهِ ونَظَّمها ، فَجَعل نَفَراً مِنْهُم على تَلٍّ مُرْتَفِعٍ ، هُم الرُّماة ، لِيَحْمُوا ظُهُور المسلمين ، وحذّرهم أن يَتْرُكُوا أماكِنِهُم ، سواء كان النَّصْر أم كانت الهزيمة ...

وبَدَأ القتال بالمبارَزَةِ أَوّلاً ، وهي مقدِّمات المعارِكِ عند الْعَرَب ، يُلْهِبُون بها حماس المقاتلين وُيثيرونهم ..

---

(١) ذُباب السيف : طرفه الذي يضرب بِهِ .
(٢) ثلْماً : كسْراً .

وكان « أبو دُجانَةَ » – « سِمَاكُ بُن خَرْسة » – رضي الله عنه – أوّل فُرْسان المسلمين نزولاً إلى الميْدان ، يحْمِلُ بيدِهِ سيْف رسُول الله «ﷺ» ، ويُنْشِد مُرتَجِزاً :

أنا الذي عاهَدَني خليلي ونَحْن بالسَّفْحِ لدى النَّخيل
أن لا أقوم الدَّهْر في الكبول أَضْرِبُ بِسَيْفِ الله والرَّسُولِ

وما خَرَج له فارس من فُرْسان « قُرَيش » إلا صَرَعَهُ وتركَهُ جُثَةً هامدة فوْق الثرى يتخبَّط بدمائه ...

ثم آشْتَبَكَ الفريقان ...

وماهي إلاّ جَوْلات حتى دارت الدائرة على المشركين ، وَوَلُّوا هاربين ، مخلّفين وراءَهم كثيراً من المغانم ... ، عندئذٍ تحرَّكتْ نَزْعَةُ حُبِّ المغْنم في نفوسِ أَكْثَر الرُّماةِ فوْق التَّل .. ، فتركُوا أماكنهم غير آبهين ولامُهْتَمين بِتَحْذيراتِ قائدهم « عبدالله بن جُبَيْرِ » – رضي الله عنه – ، ولا مُتَذكّرين نصيحة رسُولِ الله ﷺ أوْ تَنْبيهه ...

وكان على خَيْل المشركين يوْمئذٍ « خالد بن الوليد » ، فآلْتَفَّ من وراء التَّل بالْخَيْل وراح يَضْرِبُ في مؤخَرة المسلمين ، مِمّا أَوْقَعَ الْهَلَعَ والْفَزَع في نُفوسِهِم ، وغَيَّر ميزان المعركة لصالح « قريش » التي آرْتَدَّتْ إلى الميْدان وراحتْ تَضرِب وتَضرِب ..

وبدأ شهداء المسلمين يتساقطون واحداً إثْر واحِدٍ ...

وتقدَّم « وَحْشيُّ بن حرْبٍ » حتى قارَبَ « حَمْزَةَ » – وهُوَ لايراه – ، فَهَزَّ حرْبَتَهُ في يَدِه حتى توازنَتْ ، ثم أَطْلَقَها فاسْتَقرّت في أَسْفَلِ بَطْن « حمزة » وخرجت من ظهره ...

وَلَجَّ رسُول الله ﷺ مع نَفَرٍ من أَصْحابِهِ صُعُوداً في الْجَبَل ... تفادياً

لِسِهام العدوّ ورماحِهِ ... ، ولقد شُجَّ وَجْهُهُ « عليه الصلاة والسّلام » وكُسِرَتْ رُباعيّته – أحد أَسْنانِهِ الأماميَّة – ؛ وَ أَرْجَفَ أَحَدُ المشركين ، ويُدْعى « ابن قَمِئَة » بِمَوْتِهِ « عليه السلام » .. ، مِمَا ساعَدَ على تخاذُلِ الناس وضَعّفِ روحهم المعنوية ... وآنْهِزامهم ...

وظَهَرَتْ بطُولات من بعض الصحابة – رضوان الله عليهم – تَبْلُغُ حدَّ الأساطير ، مِثْل ما كان من « مُصْعَب بن عُمَيْر » حامل اللّواء ... إذْ قُطِعَتْ يمينُهُ ، فآحْتضَنَ اللواء بيسارِهِ ... فَقُطِعَتْ هي أَيْضاً ، فَضَمَّهُ إلى فَخِذَيه ... حتى سَقَط صريعاً مُضرَّجاً بدمائِهِ يلْفِظُ أَنْفاسَهُ ...

وما كان أَيضاً من « أُمّ عمارة » – نسيبَةُ بِنْت كعْبٍ » – رضي الله عنها – ، التي آخْتَطفت سيْفاً من أحد الهاربين ، وَوَقَفَتْ تُدافِعُ دُونَ رسُول الله ﷺ وتحمْيه ... ، إلى أن ضَرَبها « أَبْنَ قَمِئَة » على كَتِفها فأصابها بِجُرْحٍ عميق ... ، فَصَرَخ رسُول الله ﷺ بأَبْنِها أَنْ أَدْرِكْ أُمّك ... ، فقالت « أم عمارة » : أُدْعُ الله لنا يارسُول أَنْ نكُون رُفقاءَك في الجنَّة .. ، فَدَعا لها ، فقالت : لاأُبالي بعد ذلك بالْمَوْت .

ومَثَّل المشركون بشُهداء المسلمين ، فَجَدَعُوا – قَطَعُوا – أُنُوفَهُم ، وقَطَعُوا آذانَهُم ، كما بَقَروا بَطْن « حَمْزَة » – رضي الله عنه – ...

وتناوَلَتْ « هِنْدُ بنْت عُتْبَة » كبِدَ « حَمْزة » تلُوكُها بيْن أَسْنانها فَلَمْ تَسْتَسِغْها ... فَلَفَظَتْها ...

وكانَتْ « هِنْد » أثْناء المعركةِ تُزغْرِدُ وتَهْزِجُ قائلة :

وِيهاً « بني عَبْد الدّار » وِيهاً حُمـاةَ الـدّارِ
ضَرْباً بكُلّ بتّار

إن تقبلـوا نعانـق ونفـرش النمـارق
أَوْ تُدْبروا نفـارق فراق غير وامـق

ثم هَدَأ صَليلُ السُّيوفِ وصهيل الْخَيلْ وحَمْحَمَتُها ، وقَعْقَعَةُ السِّلاح وضجيجها ... ، وغادَرَ القرشِيُّون أرض المعركة .

ونزل رسُولِ الله «ﷺ» من الجبل ، ووقف عند جَسَدِ عمِّه « حَمْزَة » المسجيّ وقْفة غَيْظٍ وحَنَقٍ وأَلَم ، ثُمَّ أَمَرَ بالقَتْلى الشُّهداء فَصَلّى عليهم ، ودُفِنُوا في مصارِعِهم ...

وعاد المسلمون إلى « المدينة » ، وكانت ليلة شديدة عليهم ، خَيّم فيها الْحُزْن على البُيُوتِ والدُّور والْأَحياء .

وبيْنا الناس في صميم أَحْزانهم ... ، إذا بمنادي رسُول الله «ﷺ» يَدْعو الذين حَضَرُوا « أُحُداً » – رغْم جراحهم وتَعَبِهِم – أن يتهيّئوا لِلْخُروج ... ، لملاحقةِ المشركين ومطارَدَتِهم .

إذ بَلَغَ رسُول الله «ﷺ» أن في نية « قريش » الإغارة على المدينة .. !!

فَخَرجَ رسُول الله «ﷺ» ومعه أصحابُه ، حتّى بَلغُوا مكاناً يُدْعى « حمْراء الأسَد » ...

ولقد كانَتْ « قريش » تتردَّد بَيْن أمريْن : هل تكرُّ نَحْو المدينة فَتَقْضي على البقيَّةِ الباقية من المسلمين ، في عُقْر دارهم .. ، أم تُتابعُ سَيْرها إلى « مكة » مُكْتفيةً بما حقّقَتْ ...

وٱلتقى « أبوسُفْيان » – قائد المشركين – ، عند « حَمْراء الْأَسَد » بِرَجُلٍ إسْمُه « معْبد الخُزاعيّ » كان مُحِبّاً لرسُول الله «ﷺ» ... ، وكان قادِماً من قِبَلِ « المدينة » ، فَسَأَلَهُ « أبوسُفْيان » عن الجديد من أَخْبار المسلمين قائلاً له : ما وراءَك ؟ فقال « معْبد » مُخادِعاً : لقد خَرَج « محمد » في جَيْشٍ كثيفٍ يريدُكُم .. !!

عندئذٍ بادَرَ القرشِيُّون مُسْرعين في الفرار ، لايلْوُون على شيّء ... ،

جُبْناً ورَهْبةً وخوْفاً .. ، من غَير تدبيرٍ ولا تنظيم .

وبَقي بَعْضُهُم غارقاً في نوْمِهِ وقد هدَّهُ تَعَبُ المسير .. ، منهم « أبوعَزَّة » الشاعر ، فداهَمَتْهُ قوّات المسلمين مع غَيْرِهِ ...

فلمّا قُدِّم بَيْن يَدَيّ رسُول الله ﷺ لِيُضْرَبَ عُنُقه جزاء لِنُكُوله عن العهْد الذي قَطَعه على نَفْسِهِ يَوْم « بُدْر » حين وَقَعَ في الأسْر ، ثُمّ عفا عنه رسُول الله «ﷺ» رِفْقاً ببناتِهِ الْأَرْبع ... ، وتعهَّدَ أن لا يَقُول الشِّعْر في التحريض على المسلمين ...

أَخَذَ « أبوعزّة » يكرّر القوْل الذي قاله يَوْم « بَدْرٍ » مُسْتَرْحِماً ومُسْتَعْطِفاً رسُولَ الله «ﷺ» ، فقال له «ﷺ» :

— [إنّ المؤْمن لايُلْدَغُ من جُحْرٍ مرَّتَيْن]

ثُمَّ أَمَرَ بضَرْب عُنُقِهِ .

وعاد المسلمون إلى « المدينة » ، بعد أن حَقّق رسُولُ الله «ﷺ» من غَزْوةِ « حَمْراء الْأَسَد » أكثر من غَرَضٍ وهَدَف ، ولعلَّ أَهَمَّ الْأَهداف هو آسْتمراريَّةُ شَحْن نُفُوس الناس بطاقةِ الجهاد ، وإرْهاب الْأَعْداء ... ، والله غالِبٌ على أَمْرِه .

* * *

[سريَّةُ « الرَّجيع » وَسَرِيَّةُ « بِئْر مَعُونة »]

« الرَّجيع » إسْمُ ماءٍ لقبيلةِ « هُذَيْل » ، بناحيةٍ من نواحي « الحجاز » ،

والقصَّةُ : أن جماعةً من قَبِيلَتّي « عَضَلٍ » و« القارة » جاءوا إلى رسُولِ الله «ﷺ» يقولون :

— يا رسُول الله ، إن فينا إسْلاماً ، فآبْعَثْ معنا نفراً من أصحابك يفقِّهُوننا في الدين ، ويقرئوننا القرآن ، ويعلِّمونا شرائع الإسلام

فَبعَثَ معهم «ﷺ» ستة من أصحابِهِ ، هم : « مرْثَدُ بن أبي مرْثِدٍ الْغَنَويّ » و« خالد بن البُكَيْر » و« عاصم بن ثابت بن أبي الْأَقْلح » وخُبَيْبُ بن عديّ » و« زيد بن الدّثِنَّة » و« عبدالله بن طارق »

فلمّا كانوا في بعض الطريق ووَصلُوا إلى « الرَّجيع » ، غَدَروا بِهِم ، وخرجتْ عليْهم قبيلةُ « هُذَيْل » .. ، وقالُوا لهم : إنّا والله مانُريد قَتْلكُم ، ولكنّا نُريد أن نُصيبَ بكُم شيْئاً من أَهْل « مكة »

فأما « عاصم » و« مرْثد » و« خالد » فقد رفَضُوا الاستسْلام ، وقاتلُوا حتى قُتِلُوا ، وكان « عاصم » – رضي الله عنه – قد أَقْسَمَ أن لايمسَّ مُشْرِكاً ولا يَمَسَّهُ مُشْرِك ، وقد فَعَلَ الأفاعيل في « بَدْر » و« أُحُدٍ » بالمشركين ...

وكانَتْ إحدى سيّدات « قريش » وتُدْعى « سُلافة بنت سعد » قد أقسمت أن تشرب الخمر في جُمْجُمةِ « عاصم » إن هي تمكَنت منه ، لأنه قَتَل ولديْها يوم « أُحُد » ...

فلمّا أراد « الهُذليّون » أن يَحْتَزّوا رأس « عاصم » ويبيعُوها من سُلافة – بَعْد مقْتله – ثارتْ في وجوههم الزّنابير ، تَمنعه وتَحْميه ، فقالُوا : نَتْرُكُه حتى يُمسْي ... ، فلمّا كان المساء أمطرت السماء مطراً غزيراً ، وآحْتمل السَّيْل جُثّة « عاصم » فَقَيَّبها ؟ ... ، وَبَرَّ « عاصَمٌ » بِقَسَمِهِ أَنْ لا يَمسَّه مُشْرك بِفَضْلٍ منَ الله ونِعْمة

وهكذا يكون صفاء الإيمان والعهْد مع الرّحمن !!!

* * *

أُخِذَ الباقُون أسْرى ...

وفي بعض الطريق انسَلَّ « عبدالله بن طارقٍ » من قِيْدِه ، وآسْتَلَّ سَيْفَهُ ، وقاتَلَ حتى قُتِل ... وبِيعَ « خُبَيْب » و« زيد » في أسْواق مكَة » .

فأما « زيْد » فقد ابتاعه « صَفْوان بن أُمَيّة » لِيقْتُله بِأَبِيهِ « أُمَيّة بن خلَف » ، فَبَعَثه مع موْلىً له يُقال لهُ « نِسْطاس » إلى ضاحيةٍ في « مكّة » تُدْعى « التَّنعيم » ، وآجْتَمَعَ حوله طائفة من المشركين لِيَشْهَدوا مصرعه ،

وهناك سَأَلَهُ « أبوسُفيان » :

ـــ أنْشدك الله يا « زيّد » أتُحِبُّ أَنَّ « محمداً » الآنَ مكانَكَ تُضْرَبُ عُنُقُه وأَنْتَ في أهلك ؟

فقال « زيْد » :

ـــ والله ماأُحِبُّ أن « محمداً » الآن ، في المكانِ الذي هُو فيه ، تُصيبُهُ شَوْكة تؤْذيه وأَنّي جالسٌ في أَهْلي

فقال « أبوسفيان » :

ـــ مارَأيْتُ من الناسِ أَحَداً يُحِبُّ أَحَداً كَحُبِّ أصحاب محمدٍ مُحَّمدا ...

ثم قَتَلَهُ « نِسْطاس » .

وحَبَسُوا « خُبَيْباً » حتى حين .. ، عند امرأةٍ « قُرَيْشٍ » تُدْعى « ماوية » . وتحدَّثنا « ماوية » عن « خُبَيْبٍ » فَتَقُول :

ـــ رَأَيْتُهُ ذات يَوْمٍ وفي يَدِهِ قُطْف عِنَبٍ مِثْل رَأْس الرَّجُل .. وما أَعْلَمُ في أَرْض الله عِنَباً يُؤْكل !!!

يَعْني : أنّه لم يكُن المْوسم موْسم عِنَبٍ ، ولكنه رزْق ساقَهُ الله تعالى إلى عُبْدِهِ المؤمن .

فلّما حانَ حَيْنُهُ خَرَجُوا بِهِ إلى « التَّنعيم » – أيْضاً – لِيَصْلبوه ، فَٱسْتَمْهَلَهُم في صلاةِ ركْعَتَيْن تَقَرُّباً إلى الله تعالى ، فتركوهُ يَفْعل .. ، ثم لَمّا رَفَعُوهُ على الخشَبَةِ قال :

— اللهُمَّ إنّا قد بَلَّغْنا رسالَةَ رسُولك ، فَبَلِّغْهُ الغداةَ مايُصْنَعُ بنا ...

ثم دعا على القوْم فقال :

— اللَّهُمَّ أحْصِيهم عَدَدا ... ، وٱقْتُلْهُم بَدَدا ... ولا تُغادِرْ مِنُهم أَحَدا ...

وكان مما رَدَّدهُ أَيْضاً ، وهُوَ يلْفظ أنفاسه فوق الخشبةِ :

فَوَ اللهِ ماأَرْجو إذا مِتُّ مُسْلِماً ... على أيِّ جَنْبٍ كان في اللهِ مَضجعي
فَلَسْتُ بِمُبِدٍ لِلْعَدُوِّ تَخشُّعاً ... ولاجَزَعاً إني إلى الله مَرْجعي
ولَسْتُ أُبالي حينَ أُقْتَلُ مُسْلِماً ... على أيِّ جَنْبٍ كان في اللهِ مَصْرعي

وتناقَلَتْ – يابُنَيَّ العزيز – جُنوُدُ الله من ريحٍ وطَيْرٍ .. وغيرها ، سلامَ « خُبَيْبٍ » على رسُول الله «ﷺ» وهُوَ جالسٌ مع أصحابِهِ في المسْجد ، فقال « عليه السلام » :

— [وعَلَيْكَ السَّلام يا « خُبَيْب » ...]

وبَيَّن بعد هذا أَنَّ مَقْتَل « خُبَيْبٍ » – رضي الله عنه – كان في تلْك اللَّحْظة ،

أمّا سريَّةُ « بِئْر مَعُونَةَ » ... ، فهي من حَيْثُ وقائعها وظروفها كثيرة الشَّبَهِ بسريَّة « الرَّجيع » ولكنَّها أفْحَشُّ وأَبْلَغ ... ، إذْ كان عَدَدُ الشهداء فيها أَكْثر ، ولما ترتَّب عليْها من آثارٍ ونتائج .

فقد جاءَ أحدُ رجالِ « نَجْد » إلى رسُول الله ﷺ ، واسمُهُ « عامِرُ بن مالكٍ » ويُلَقَّبُ بـ « مُلاعِبِ الأَسِنَّة » – ، يَسْأله – ﷺ – أن يُرسل وَفْداً إلى

أَهْلِ « نَجْد » فأَنَ فيهم إسْلاماً ... ، فَتَردَّد رسُول الله «ﷺ» في ذلك ، خَوْف الْغَدْر والخيانة ... ، لكنَّ « عامر بن مالكٍ » ضَمِنَهُم ، وتعهَّد بحمايَتِهم ... ، فوافق رسُول الله «ﷺ» ... ، وأَرْسل مايزيد على أربعين من الصحابهِ ، جُلُّهُم من طائفِةِ (القُرّاء) الذين تَفرَّغُوا لِلْعِلْم والفقْهِ والعبادة ...

فَغَدَرَ بهم « عامر بن الطُفَيْل » ابن أخي « عامر بن مالكٍ » ، ومَعَهُ قبائل « سُلَيْم » و« رَعْل » و« ذكْوان » ... وأبادوهم جميعاً ، ماعدا « عَمْرو بن أُميَّة الضَّمْرِيّ » الذي كان يَرْعى سَرْج إخوانِهِ المسلمين ، والذي عفا عَنْه « عامر بن الطُفَيْل » ...،

وعاد إلى « المدينة » .. ، وفي الطريق آلتقى « عمرو » بآثنيْن من « بني عامرٍ » فَعَدا عَلَيْهما وهو يُظنُهما مُشْركيْن ، ثَأْراً لإخوانِهِ ... ، وكانا بالْفِعْل مُسْلميْن يحّمِلانِ عَهْداً من رسُول الله «ﷺ» .

فلمّا بَلَغ « عمرو » المدينة أخبر رسُول الله «ﷺ» بالْخَبَرِ الفاجعة ، وماكان من شأنِهِ مع « العامريّين » وآضطرَّ رسُول الله «ﷺ» إلى أن يَدفَعَ دِيَةَ هٰذين القتيلْين ...

وكان بَيْنَهُ وبَيْن يَهُود « المدينة » - كما قَدَّمنا - عهْد وميثاق ...

وفِي نَفس الوقْت كان بَيْن « بني النَّضير » من اليهود ، وبَيْن « بني عامرٍ » أَيَضْاً - تحالُف وتعاهُد ... ، فسعى إلى « بني النّضير » يستعين بهم على رَفْع الدِّية ...

كان « علية الصلاة والسلام » في نَفَرٍ قليلٍ من أصحابه ، لايتجاوزون الْعَشرة ... ، فاسْتَقْبلهُ بنو النَضير » ورحَّبُوا بِهِ وأَظْهرُوا كُلّ مَوَدَّةٍ ، ثم آسْتأْذنُوهَ أن يَنْفِردوا لِلتَّشاوُر .. ، ودَخَلُوا داراً لهُم ، وهناك آرْتأَى أَحَدُهم أن الْفُرْصة مؤاتية لِلْغَدْر برسُول الله ﷺ وقتْلِهِ ... ، وهو في قِلَّةٍ من أصحابِهِ .. ، ولنْ تتكرَّر هذه الفرصة ... ، فوافقُواهُ على مارأى .. ، ثُمّ قام

أَحدُهُم يَحْمِلُ حَجَراً ضخْماً ثقيلاً لِيُلْقيه من فوْق سَطْح الدار على رأس النبيِّ «ﷺ» ...

أما الآخرون فخرجُوا لِيُتابعُوا المداهنة والمخادَعَة ...

وكانت المفاجأة .. !!

ــ أيْن « محمد » !؟؟ إنّه ليْس بَيْن أَصْحابِهِ ..!!

إذْ أُوحي إلى رسُول الله «ﷺ» بِغَدْرهم وخيانَتِهم حين تَغَيّبوا داخل الدار ، فقام من بَيْنِ أصحابِهِ مُسْتأْذِناً ... كَأَنَّه يُريدُ قضاءَ حاجةٍ !!! ... ، ثم آنْصَرَف عائداً إلى المدينة ...

وأُسْقط في يد اليهود ، وضيَّع الله تعالى عليهم تدبيرهم وتآمُرَهم ...

ولمّا طال انتظار الصحابة لرسُول الله ﷺ قامُوا ... ، ولَحِقُوا بِهِ .. ، فلما أتوه في المسْجد يَسْأَلُونَه عن سبب تَغَيُّبِهِ وتأخُرِه .. ، أَخْبَرهُم خَبَر تآمُر « بني النَّضير » وماكانُوا يُدبِّرون .

لــذا ...

طلب النبيُّ «ﷺ» من « بني النضير » أن يَخرُجوا من جوارِهِ لأنهم نَقَضُوا عَهْدهم وميثاقَهُم ، فَأَبُوا وتَحصَّنُوا داخل مساكنهم وحيِّهم بقيادةِ زعيمهم « حُيَيُّ بن أَخْطب »,.

فخرج إليهم رسُول الله «ﷺ» في قواتٍ من المسلمين وحاصَرَهم ...

ثم إنه «ﷺ» أراد أن يُحَرِّك فيهم بَواعث المواجهة والقتال ، فَأَمَرَ بِقَطْع نخيلهم وحَرْقِهِ ... !! فآستَسْلَمُوا ونزلُوا على حُكمِهِ ، وأُجْلُوا عن المدينة ، مُخلِّفين وراءَهُم دورهم ومساكِنَهُم خراباً يباباً ... ، وأموالهم وزرُوعَهُم ...,

* * *

[عَزْوَةُ « الْخَنْدق » أَو « الأَحْـزاب »]

وكانَتْ في السنة الخامسة من الْهِجْرة ...

وسَبَبُها ، أَنَّ « حُيَيَّ بن أَخْطب » زعيم يهود « بني النَّضير » الَّذين أُجْلُوا عن المدينة ، نَزَلَ هُوَ وقومه في « خيبر » ... ، ومن هُناك عاد « حُيَيٌّ » إلى تآمُرِه ... بدافع الحقْدِ والثَّأْر ...

فسعى إلى « قريش » في « مكة » يُحرِّضُها على قتالِ « محمد » – ﷺ – ، ويَشْهَدُ لها أَنَّ آلهتها أَفْضَلُ وأَصْدق من إلٰهِ « محمد » ... ، ويُقرُّها على وثنيّتها وصنميَّتها ... ، ويَضْمَنَ لها أَنْ يَجْعل من « بني قُرَيْظَةَ » – وهم بقيَّةُ اليهود في المدينة – طَرَفاً متحالِفاً مع « قريش » ...

فتشجعت « قريش » ، وتحالَفَتْ مع قبائل « سُلَيْم » و« غَطَفان » وغَيْرهما .. ، وخَرَجوا جميعاً إلى « المدينة » في عدَدٍ كَثيفٍ لم تعْرفه أرض العرب من قبْل ، إذ بَلَغُوا عشرة آلاف مُقاتل .. ، امْتَلأَتْ بهم أرض « المدينة » من ناحية الشمال الشرقيّ ...

غير أنهم فُوجِئُوا عند وصولِهم بِخَنْدقٍ عظيم ... يْحتمي وراءَهُ المسلمون ..، وكان الخندقُ قد حُفِرَ بإيعازٍ وإشارةٍ من « سلْمان الفارسيّ » – رضي الله عنه – ، كَخَطٍّ دِفاع ، فقد سأل رسُولُ الله «ﷺ» أصحابَهُ عن رَأْيهم في المْوقف حين بلغَهُ تحالُف الأَحْزاب وخروجها ، فقال « سلْمان » :

— يارسُول الله .. كُنّا في فارس نُخَنْدِقُ حوْلنا ...

فَشَمَّر المسلمون عن ساق الْجِدِّ وقامُوا يحفرون الخندق ، وساعد رسُولُ الله «ﷺ» بِنَفْسِهِ وبِيَدِهِ الشريفة في الْعَمَل كواحدٍ من أصحابِهِ ، رضي الله عنهم .

وأثْناء عمليَّة الحفْر آعْتَرَضَتِ المسلمين صَخْرةٌ صَلْدةٌ صَمّاء ، لم يُفْلِح في تَفْتيتها معاولهم ، فأتُوا رسُول الله «ﷺ» ، فضَرَبها ضربتيْن فَقَط .. مما جَعَلَها تَتَبَدَّدُ جُذاذاً ...

برقتْ شُهُباً في الأولى والثانية ... ، وفي كِلْتيْهما كبَّر رسُول الله «ﷺ» وبَشَّر المسلمين بِفَتْحِ « فارس » و« الشام » وزوال دَوْلَتْي الأَكاسرة والروم ...

وبينما المسلمون في موقعهم من الحصار ... ، والخندق يَحجز بيْنهم وبَيْن « قريش » و« الأَحْزاب » ...

جاءَه « عليه الصلاة والسلام » من يُخْبره أن « بني قُرَيْظة » – اليهود – قد نَقَضُوا عَهْدهم ، فآسْتكْتَمَ الذي نَقَلَ الخبر ، حتى تأكّد بِنفسه .. ، لكن الخبر ذاعَ وشاع ، ووقع المسلمون بَيْن شَقَّيْ رحي ، الأحزاب من أمامهم ، واليهود من ورائهم ، فكانت الأيامُ أيامَ خوْفٍ ورُعْبٍ وَشِدَّة .. ، وصفها الله تعالى في القرآن الكريم :

﴿ ياأيُّها الذين آمَنُوا اذْكروا نِعْمَةَ الله عليْكم إذ جاءَتكُم جُنُودٌ فأَرْسَلْنا عَلْيهم ريحاً وجُنُوداً لمْ ترؤها وكان الله بما تَعْملونَ بصيرا * إذ جاءوكم من فَوْقِكُم ومِنْ أَسْفَلَ مِنْكُم وإذْ زاغَتِ الأَبْصارَ وبَلَغَتِ القُلُوب الحناجرَ وتَظُنُّونَ بالله الظُّنُونا * هُنالِكَ ابْتُلِيَ المؤمنون وزُلْزِلوُا زلْزالاً شديداً ﴾[1]

* * *

(١) سورة (الأحزاب) الآيات (٩–١١) .

وكان لله تعالى – ولهُ دائماً وأبداً – كُلَّ التّدْبير والتّقْدير ...

إذ جاءَهُ « عليه الصلاة والسلام » أحدُ « بني غطفان » – « نُعَيْم بن مَسْعُود » – رضي الله عنه ، وكان حتّى تلْك الْفَتْرة على شِرْكِهِ ، قد خَرَج مع قومِهِ لقتال المسلمين .. ، جاءَهُ مُعْلِناً إسْلامَهُ .

وكان « نُعَيْم » من الوجوه البارزة في قوْمه ... ، وعند « قريش » ، وكذلك عند يهود « بِني قريظة » ،

فقال :

ـــ يارسُول الله مُرْني بما شِئْتَ ...

فقال « عليه الصلاة والسلام » :

ـــ إنّما أنْتَ فَذّ – أي : فَرْد – ، فَخَذِّلْ[٢] عنّا ماآسْتطعْتَ ، إنما الحرْبُ خدْعة .

* * *

وأدرك « نُعَيْم » بذكائِهِ ما هُو مطلوبٌ منه ، فَرَسَم خُطّةً للوقيعةِ بَيْن « بني قريْظة » وبَيْن الأحزاب ، يكُون مَن شأْنها فَكُّ هذا التّحالُف ، وإفساد الموقف على أصحابِهِ .

فقصد إلى « بني قريظة » أوّلاً ، وقال لزعيمهم « كعْب بن أسد » :

ـــ إن موقفكم فيه ضَعْف وخُطورة ، فالأحزاب من « قريش » و« غطفان » ومن معهم ليْسوُا من أهْل البلد ، فإن كانت الدائرة عليهم تركُوا مواقعهم وَرَحَلُوا وتركوكم وَحْدكم تواجهون « محمَّداً » والمسلمين ، فعليْكُم أن

---

(٢) حاوَل بالخداع أن تُضعِف عزيمتهم وتُفسد عليهم تدبيرهم .

تأخُذوا من الأحزاب رهائن مِن أبنائهم تَضْمَنُوا من خلالهم آسْتمرار الحصار والْقتال وَجِدِّيَّة الموقف ...

فرأى « كعْب » في قَوْل « نُعَيْم » صواباً ، ووافَقَهُ عليه .

ثم سعى « نُعَيْم » في نَفَس الليلة إلى معسكر الأحزاب ، وآجْتَمَع بـ « سُفْيان » قائِدهم ، وقال له : لقد عَلِمْتُ أن « بني قُرَيْظة » نَدِمُوا على مافَعَلُوا من نَقْضِ العهْد مع « محمد » وَوَعَدُوهُ أن يُسَلِّمُوهُ بَعْضاً من أبنائكَم لَضرْب أَعناقَهُم ، بعد أن يَطْلُبُوها مْنكم رهائن ...

وأضـــاف :

ومن أَجْل التحقُّق مِمّا أقول أُطْلُبُوا إليهم أن يَسْتَعِدوا للقتال غداً ...

ففعل « أبوسُفْيان » ماآقْتَرحَهُ عَلَيْه « نُعَيْم » ، فجاءَه رَدُّ الْيَهُود :

ــ إنَ غداً السَّبْت ، ونحن لانُقاتل فيه .. ، ونُريد مِنْكُم عشْر رهائن من أبنائكم لِنَضْمَنَ استمراركم مَعَنا !!!

فتحقَّقَ «أبو سُفْيان» عندئذٍ من صِدْق « نُعَيْم » ...

وأُخذ التَّخاذُل يدبُّ إلى صَفُوف الْأَحْزاب ... ، لِطُول الحصار ، وتراجُع « بني قرِيظْة » ...

* * *

في تلْك الليلة ...

هَبَّت رِيحٌ شديدة ، باردة قارسة ، فاقتلعت الخيام ، وأُكْفَأَتِ الْقُدور ... ، فَأَجْمَعَ « أبوسُفيان » ومن مَعَهُ من « قريش » على الرحيل ...

ومع آنْبلاج الفجْر ، كانَتْ أَرْضُ مُعَسْكر الْأَحْزاب بَلْقعاً ... حَفْراء نَفْراء ... لا أَثَرَ فيها لإِنْسان ، وكفى الله المؤمنين الْقِتال .

[التَّأديبُ والقصـــاص]

كان لابُدّ من تأديب « بني قُرَيْظة » والاقتصاص مِنّهُم ، أولئك الذين نَقَضُوا العهْد ونكثُوا بالوعْد ، وخانوا الأَمانة ... ، وتحالَفُوا مع المشركين على المؤمنين ..

فَبَعْدَ أَنْ عاد المسلمون إلى « المدينة » ... وقد انصرفتِ الأَحْزاب ، دَخَلَ رسُولُ الله (ﷺ) ليغْتَسِلِ ، عندئذٍ جاءَ « جبريل » – عليه السلام – يقرعُ باب بَيْتِ النُّبُوَّة ، فَتَلَقَّتْهُ « عائشة » – رضي الله عنها – ، ثُمَّ أَتَتْ رسُول الله (ﷺ) تقول : يارسُول الله إن « دحْيَة بن خليفة الكلْبِيّ »[1] بالباب يَسْأل عنك .. ،

فخرج (ﷺ) وشَعْرُهُ الشريف يَقْطُرُ ماءً ... ، فإذا بـ « جبريل » يَطْلُبُ إليه أن يُبادر في قتال « بني قريظة » ...

وقال « عليه الصلاة والسلام » لِ « عائشة » :

— إنَّهُ « جبريل » يا « عائشة » في جَيْشٍ من الملائكة قد سبقنا إلى « بني قريظة » ... ثم أمر منادياً أن يُنادي في الناس :

— من كان يؤْمن بالله واليوْم الآخر فلا يُصَلِّيَنَّ العصر إلاّ في « بني قريظة » ...

وأَرْسَل « عليّ بن أبي طالبِ » – كرّم الله وجهه – مع بَعْض الصحابةِ طليعةً له ، ثُمَّ تَبِعَهُم في بقيَّةِ المسلمين ، فلمَّا أَتاهُم حاصَرَهم ...

---

(١) أحد « الصحابة » – رضوان الله عليهم – وكان « جبريل » – عليه السلام – يأتي رسُول الله (ﷺ) في صورتِهِ .

وقد اختلفُوا ، وهم في حُصُونِهِم محاصرين ، على أكثر من رَأْيٍ في معالجةِ المْوقف ... رَفَضُوا الخروج والمواجهة ...

ورفَضُوا الاستسْلام ...

وآثروا آمتداد الحصار ، وظَنُّوا أنَّهم مانِعتُهُم حُصُونُهم .

* * *

وبعد مُضيّ أيّامٍ بلياليها ، وقد أصابهم اليأْس والقَنُوط ... ، فاوَضُوا رسُول الله «ﷺ» ، وآرْتضُوا أنْ يحكم فيهم «سَعْد بن مُعاذٍ» – رضي الله عنه – ، وكان « سعْد » جريحاً ، يُعاني من سَهْمٍ أصابَهُ يوْم « الخنْدق » ، فحُمِل على سريرٍ إلى مُوقِع حُصُون « بني قريظة » ؛

قال « سعْد » :

ــ أني أحْكُمُ فيهم أنّ تُقْتَل المقاتِلة منهم ، وتُقْسم أمْوالهم ، وتُسْبي ذراريهم ونساؤهم ...

فقال رسُول الله «ﷺ» لِـ « سعْد » :

ــ لقد حَكَمْتَ فيهم بِحُكْمِ الله من فَوْق سَبْعَةِ أرقِعَةٍ ...

أي من فَوْق سَبْع سماوات .

وتمَّ تنفيذ هذا الْحُكْم ، وانتهى الوجُود اليهوديّ في « المدينة » إلى الْأبد !!!

[الرُّؤيا بالْـحَق]

في ذاتِ ليْلةٍ رأى رسُولُ الله « ﷺ » رُؤْيا ... ، كَأَنَّه مُعْتَمر مع أَصْحابِهِ ، يزورون البيْت الحرام ، ويطوفون حوْل الكعبة ؛ ...

ورُؤْيا الأنبياء حَقّ ...

فتجهز «ﷺ» لزيارة البيْتِ الحرام .. ، وخَرَج من « المدينة » في شَهْر « ذي القعْدة » – من السنة السادسة ، إلى « مكّة » مُعْتَمِراً زائراً ، يُسوق الْهَدْي أمامهُ ، وَهِيَ الأُضْحِية التي سَوُف تُنْحر تقرُّباً إلى الله تعالى .

* * *

حتى إذا بَلَغَ « الْحُدَيْبِيَة » – وهي مكانُ ماءٍ عِنْد « مرِّ الظَّهْرانِ » على طريق « مكّة » ... ، وصلتْهُ الْأَنباء بَأَنَ « قُرَيْشاً » قد آسْتَنْفَرَتْ واحتشدت تريدُ أن تْمنعَهُ وأصحابه من دُخول « مكة » ولوْ جاءَ مُسالِماً وُمَعظِّماً ... ، إذ لا يَدْخُلها عليْهم عُنْوةً أبدا ...

* * *

وحَيْثُ أنَّه «ﷺ» قد خَرَج مع أصحابِهِ معتمرين ، لايُرِيدون حرْباً ولا قتالاً ، الْتَزَم بالمبْدأ ، وتوقَّف عن المسير ، وعَسْكَرَ في « الحديبية » .

وأَخَذت الرُّسلُ تسْعى بالتفاوُض والتّشاور بَيْن الطرفين ...

فأَرْسَلَتْ « قريش » أكثر من شخص إلى رسُولِ الله «ﷺ» ليُقَنِعَهُ بالعوْدةِ إلى « المدينة » ... أرسلت « مِكْرز بن حَفْصٍ » ثم « عُرْوَةَ بن مَسْعودٍ

الثقفيّ » ، ثُمّ « سُهَيْل بن عمرو » ... أخيراً ، وقد فَوّضُوهُ أن يوقِّع مع النبيِّ «ﷺ» عهْداً .

* * *

[« بيعَــةُ الرّضوْان »]

وقَبْل « سُهَيْل بن عمرو » كان رسُولُ الله «ﷺ» قد أَرْسَلَ « عثمان بن عفّان » – رضي الله عنه – من قِبَلِهِ إلى « قريش » ليفاوضهم ، لعلَّهم يقتنعُونَ بسِلامَةِ المقصد... وحُسْنِ النوايا .

فغاب « عثمان » أَيَاماً ، وسرَتْ إشاعةٍ بأن « قريشاً » قَتلُوا « عُثمان » ..، فبايَعَ النبيُّ «ﷺ» أصحابه على قتالِ « قريش » والثّأْر لِـ « عُثْمان » .. ، وقد استَظَلَّ رسُول الله «ﷺ» تحْت شجرةٍ ... ، فعُرِفَتْ تِلْك البيعة بـ « بيعة الشّجَرَة » ...

وأَنزَلَ الله تعالى في سورة « الْفَتْح » مايُشير إلى ذلك :

﴿ لَقَدْ رَضِيَ الله عن المؤمنين إذ يُبايعُونَكَ تحْت الشَّجَرةِ فَعَلِمَ ما في قلوبِهِم فَأَنْزَل السَّكِينَةَ عَلَيْهم وأثابُهم فَتْحاً قريبا ﴾ .

وكما رضي الله تعالى عن المؤمنين المبايعين تحْتَ الشَّجَرَةِ ، فسُمّيَتْ البيعة « بيعة الرّضِوان » ، أَشارَ كذلك إلى يَوْم فَتْحٍ قريب ... فَتْحٍ عظيم ... هُوَ فَتْح « مكّة » ..!! ، ولكّن الأمْر ظَلَّ في طَيِّ الكتْمان وتَقْدير الرحمٰن .. !

وعادَ « عُثْمان » – رضي الله عنه – آمناً سالِماً ...

ومِمَّا يُذْكر ، أَنَّ « قريشاً » أحبُّوا أن يُستَمِيلُوا « عثمان » وهُوَ في « مكة » ، بِأَنّ يَطُوف بالبيْتِ العتيق إذا شاءَ ، لكنّه – رضي الله عنه –

أبى ... ، وكيْفَ يَفْعَلُ ذلك وقد حِيلَ بَيْن رسُول الله «ﷺ» وبَيْن دُخول « مكّة » والطوافِ بالْبَيْتِ ؟!

* * *

[عـهْد « الْحُدَيْبِيَـة »]

في نهاية المفاوضات بَيْن رسُول الله «ﷺ» وَبَيْن « سُهَيْل بن عمرو » — مندوب « قريش » — ، اتَّفَق الطرفان على :

ـــ أن تكُون بَيْنهما هُدْنة مدتها عشْر سنوات .

ـــ وأنّ من أراد أن يَدْخُلَ في حِلْف « قريش » فَلْيَدْخُل ، ومن أراد أن يَدْخُلَ في حِلْف « محمد » — ﷺ — فَلْيَدْخُل ،

ـــ ومن أتى « محمداً » — ﷺ — هارباً من « قُرَيْش » ردَّهُ إليهم ، ومن أتى هارباً مُرْتَدّاً إلى « قريشٍ » لا تَرُدُّهُ ...

ـــ وأن يَأْتِي المسلمون في عامٍ قابلٍ إلى « مكّة » ، مُعْتمرين وقد أخْلَتْها لهم « قريش » فَيُقيمُوا فيها ثلاثة أيّام ... لا يزيدون على ذلك .

* * *

ولقد كان ظاهر هذا الْعَهْد إجحافا بحقّ المسلمين ، كما تصوَره بعض الصحابةِ — ، وعلى رَأْسهم « عمر بن الخطّاب » — رضي الله عنهم — ، فَغَضبُوا ... وثارُوا ... وتألَّمُوا ... ، وتكَلّمُوا ... ، فكانَ ردُّ رسُولِ الله «ﷺ» :

ـــ أنا عَبْد الله ورسُوله .. ولَنْ يُضيِّعني ...

أما العهد في حقيقتِهِ — ياولدي العزيز — ، فقد كان يكْفِي أنْ تُجْبَر « قريش » على الآعْترافِ بالمسلمين قُوَّةً مُناوِئَةً لها ..!!

كما كان إيذاناً بالْفَتْح العظيم – فَتْح « مكة » – ، كما سَبَق وقَدَّمْنا .

* * *

وهُناك حادِثَةٌ طريفة ، وقعتْ أثناء المفاوضة ، وهي جديرة بالرواية لما فيها من معانٍ وعِبَرٍ وَعِظات ...

فقد كان « أبوجَنْدل » – « ابنُ سُهَيْل بن عمرو » مُسْلِماً مؤمناً ... مَحْبوساً في « مكة » ... وحين عَلِمَ بِوُجُودِ رسُول الله «ﷺ» والمسلمين في « الحديبية » فَرَّ من مَخْبِئِهِ ومَحْبَسِهِ ، وأَتى مُعَسْكر المسلمين ، وفي يَدَيْهِ وَرِجْلَيْه بقايا قيودِهِ وأَغْلالِهِ ...

وكان العهْد قد تَمَّ إبْرامُهُ وخَتْمُهُ ... ، مِمّا جَعَلَ رسُولَ الله «ﷺ» يرُدُّ « أبا جَنْدلٍ » إلى « قريش » ... مع أبيه « سُهَيْل بن عمرو » .

ولقد تَأَلَّم المسلمون لذلك غاية الْأَلَم ..

وعزّى رسُولُ الله «ﷺ» « أبا جَنْدلٍ » بِقَوْله :

ـــ سَيَجْعَلِ الله لَكَ ولِإخْوانِكَ الْمُستضْعَفين .. فَرَجاً ومَخْرجاً مِمَّا أَنْتم فيه ...

* * *

وصَدَق رسُول الله «ﷺ» في دُعائِهِ لِـ « أبي جَنْدل » ... ، إذْ فَرَّ لِلْمَّرةِ الثانية من سجنِهِ ، والْتَحَقَ بِفارٌ آخر هُوَ « أبوبصير » – رضي الله عنه – ، وكَوَّنوا فريقاً من المضطهدين أَقَضَّ مضاجِعَ « قريش » وأَفْسَدَ عليها أَمْنها وراحتها ، وعَطَّل عليها طُرُق تجارتها ، إلى أَنِ استغاثت برسُول الله «ﷺ» ، وأَذْعَنَتْ لمطالب هؤلاء ... الثائرين ، فَأَتُوا « المدينة » آمنين مُطْمئنين ، متخرطين تحْت لواء رسُول الله «ﷺ» ...

[فَتْحُ « خَيْبَر » وقُدُوم « جَعْفَر »]

قد يَخْطُرُ في بالك سؤال ياولدي العزيز ، فَتسْألني عن سَبَبِ غَزْوِ رسُولِ الله «ﷺ» لِـ « خَيْبَر » ، مع أنّها لم تُظْهِر عداوةً، ولم يَدْخُل في حرْبٍ مع المسلمين ، وهي بَعيدَةٌ عن « المدينة » ... ، فلماذا يَبْدَؤُها رسُولُ الله «ﷺ» بالْقِتال ؟؟

هذا السُّؤال مَقْبُول من حَيْث الظاهر ، ولكنّه بحاجةٍ إلى توضيح وبيان ...

اذ اتَّخَذَ بعض « بني قَيْنُقاع » و« بني النّضير » و« بني قُرَيْظَةُ » من « خَيّبر » مقرّاً ومأوى لهُم ، بعد أن طُرِدوا من « المدينة » ، بسبب غَدْرهم وخيانتهم ، فهل سَكَتُوا على ذلك ؟ كلاّ .. ، بل جَعَلُوا من « خيبر » منطلقا جديداً لهم ، للتآمر والكَيْد ...

وكان على رأسهم هناك : « حُيَيُّ بن أَخْطب » و« أبورافع – سلّام بن أبي الْحُقَيْق » وغيرهم .

* * *

كما كانت قبيلة « غطفان » ، حليفة الأَحْزاب يوْم « الخندق » – وهي من اكبر القبائل العربيّة عدداً ، وأشدّها خطراً – تُقيم قريباً من « خُيْبر » ، في تحالُفٍ وتعاوُنٍ مع اليهود ... ، وكذلك فإن « غطفان » لم تدْخُل طرفاً في صُلْح « الحديبية » ... ،

فهذه القبيلة تُشَكّل على الدوام خطراً مؤكداً يهدِّدَ المسلمين ...

وحَيْثُ إنَّ رسُولَ الله «ﷺ» قد آطْمَأَنَّ إلى ناحية الجنوب من « المدينة » — بالهدنة مع « قريش » ، لابُدَّ وأَنْ يُؤَمِّن ناحية الشمال ... حَيْثُ « خيْبر » و« غطفان » ...

من أَجْل كُلّ تِلْك الأسباب كانَتْ غزوةُ « خَيْبر » ، مع مطلع العام السابع لِلْهِجْرة ... ففي أواخر شَهْر « المحرِّم » ، خَرَج « عليه الصلاة والسَّلام » بالمسلمين حتى نَزَلُوا بَيْن « خَيْبر » و« غطفان » ..، فَقَطَعَ بهذا التَّدبير العسكريّ الْفَذّ وسيلة الاتصال بَيْن الْعَدُوَّين الحليفيْن ، ولقد ظَنَّ كُلُّ طَرَفٍ مِنْهُما أَنَّه هُوَ المقْصود بالْغَزْو ...

* * *

كان « خَيْبَرُ » من أَغْنى مواقع اليهود في أرض الحجاز ، أكثرها زَرْعاً وخِصْباً ونماءً ... ، ووفْرَةِ مالٍ وثروةٍ ، وأشدّها تَحْصينا ...

وكانَتْ عبارَةً عن حُصُونٍ مُتعدّدَةٍ منها : « حِصْن النَّطاةِ » و« حِصْن منيع » وغيرهما .

وبدأَ رسُولُ الله «ﷺ» بمناوشَتِهم في حُصُونهم التي آحْتمُوا بداخلها ، من غَيْر أَنْ يخرجُوا للمواجهة والْقتال ، وصَدَق فيهم قَوْل الله تعالى :

« لا يُقاتلُونكُم جميعاً إلاّ في قُرىً مُحَصَّنة أَوْ من وراءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنهم شديد تَحْسَبُهُم جميعاً وقلوبهم شتّي ذلك بِأَنَّهم قَوْم لايَعْقِلُون ﴾[1]

* * *

---

(١) سورة (الحشر) الآية (١٤) .

وعلى مدى يوميْن مُتعاقبَين لم يَفْتَح الله على المسلمين ، فقد قاد هجومهم الأول « أَبُو بَكْر » ، ثُمَّ « عُمَر » – رضي الله عَنْهما – ، ولكن دُون جَدْوى ...

فقال « عليه الصلاة والسَّلام » :

ـ[لأُعْطِيَنَّ الرايَةَ غداً رجُلاً يُحِبُّهُ الله ورسُوله ، ويُحِبُّ الله ورسُولَهُ ... يَفْتحِ الله على يَدَيْه ..] فَتَشَوَّفَ كثيرٌ من الصحابَةِ لهذا المقام ...

وفي اليوْم التالي سَأَل رسُولُ «ﷺ» عن « عليّ » – رضي الله عنه وكرَّم وَجْهَه – حين آفْتَقَدَهُ بَيْن الحاضرين ، فقيل له إِنَّهُ أَرْمد ، يشْكُوا وَجَعَ عينيْه ، فَبَعَثَ في طَلَبِهِ .. ، فَمَسَحَ على عينيْه بيدِهِ الشريفة ، ودَعا لهُ ، وسلَّمه الرّاية ...

وبَرَزَ « عليٌّ » إلى الميْدان ... يَصُولُ ويَجُول ، حتى آسْتحثَّ اليهود على الْبِراز ، فَخَرَج إِلَيْه فارِسُهُم « مَرْحب » ، الذي به يَعْتَدّون ويُفاخِرون ، فجال وصال في وَجْهِ « عليٌّ » وراح يَرْتَجِزُ ويقول :

قد عَلِمَتْ «خَيْبَرُ» أَنِّي «مَرْحب» شاكي السِّلاح بَطَلٌ مُجَرَّبُ
إذا اللُّيُوث أَقْبَلَتْ تلَهَّبُ

فَرَدَّ عليه « عليٌّ » – رضي الله عنه – :

أنا الّذي أَسمَتْني أُمّي «حَيْدرة»[1] كَلَيْثِ غاباتٍ شديد الْقَسْوَرة
أُكيلُكُم بالسَّيْف كَيْل السَّنْدرة

ثُمَّ تبارزا ، وتَضاربا ... ، حتّى غَيَّبَهُما عن الْأَنْظار الترابُ والعُفار ...

---

(١) أَحَدُ أسماءِ الأسد : « حَيْدرة » .

وتمكّن « مرْحَبُ » من « عليّ » فَضَرَبهُ ضَرْبة شديدة تلقاها فارِسُ الإِسلام بتُرْسِهِ ، فانْشَقَّ نِصْفَيْن ، فَتناوُل من الأرض باباً مطروحاً تَترَّس بِهِ .. ، ثُمّ ضَرَبَ « مَرْحباً » أَشَدّ وأَقْوى ، اخترقت الْخُوذَة ودَخَلَتْ في الأُس حتى عضّ السَّيْف في الْأَسنان ... ، وسَقَط « مَرْحب » قتيلاً ...

أمّا هذه المبارزة .. ، فقد كانَتْ مفّتاح نَصْر المسلمين ، وهزيمة اليهود .. ، إذ تساقطت حُصُونهم واحداً تِلْوا الآخر أمام ضَغْط الهجمات التي قام بها جُنْد الله .. ، وانْهزم اليهودُ هزيمة ساحقةً ، وفَرَّ كثيرٌ منهم ، وَوَقع الآخرون أسرى ، واسْتَوْلى المسلمونَ على أموالهم وكُنُوزِهم ومُدَّخراتهم .. ، وضُرِبَتْ أعناقُ بَعْضِهم ...

* * *

في تِلْك الْأَثناء وَصَلَ « جَعْفَرُ بن أبي طالب » – رضي الله عنه – ومَنْ معه من المسلمين المهاجرين إلى « الحبشة » ، بعد طُول غياب اسْتمرَّ سنواتٍ ... ، فقال رسُولُ الله «ﷺ» :

— لا أَدْري بأيهما أَفْرح ... بِفَتْح « خَيْبر » أم بِقُدوم « جَعْفر » !!!

وكانَتْ « أُمَّ حبيبة » – « رمّلةُ بِنْتُ أبي سُفْيان » ، أُمُّ المؤمنين ، رضي الله عنها ، مع الوفْد القادم ، وكان رسُولُ الله «ﷺ» قد خَطَبها وهي في مُهاجَرِها ، بعد موْتِ زَوْجها ... ، وتزوَّجها « عليه الصلاة والسلام » .

* * *

كما كانَتْ « صفَّيةُ بِنتُ حُيَيّ بن أَخْطب » قد وَقعَتْ في الْأُسْر ، وتنازع بعضْ الصحابةِ عليها ، كُلّ يريدها لِنَفْسِهِ ، فحازَها رسُولُ الله «ﷺ» إليْه وفَضَّ النزاع ، وعَرَض عليها الإِسلام ، فأسلمتْ وحَسُنَ إسلامها ، فكانت إحدى أُمّهات المؤمنين – رضي الله عنهن – .

[لَتَدْخُلُنَّ المسْجِدَ الْحرام]

ودار العام دَوْرته ...

ومع إطلالة شهر « ذي الْقِعْدة » خَرَج رسُولُ الله (ﷺ) بأصحابِهِ الذين شهدوا معه « صُلْحَ الحديبية » من « المدينة » إلى « مكة » مُعْتمرين ، كما آتُّفِقَ عليه في الْعَهْد ...

فَدَخَل « مكة » بعد سَبْع سَنَواتٍ من الْهِجْرة ...

دَخَلَها وبَيْن يَدَيْه الْهَدْي ، في جلالٍ ووقارٍ وخُشُوع ... لله عَزَّ وجَلَّ ... ، وحنينٍ إلى الْبَلَدِ ويُنْشد بحماس :

خَلُّوا بني الكُفّار عن سبيله   خلُّوا فكُلُّ الخيْر في رسُولِهِ
يارَبُّ إنّي مُؤْمِنٌ بقيلِهِ   أَعْرِفُ حقَّ الله في قبولِهِ
نحن قَتلْناكم على تأْويلِهِ   كما قتلْناكم على تَنْزيلِهِ
ضَرْباً يُزيلُ الهام عن مقيلِهِ   ويُذْهِلُ الخليل عن خليلِهِ

* * *

فطافَ رسُول الله (ﷺ) حوْل البَيتِ ، وسعى بَيْن « الصّفا » و« المروة » وكذلك فعل أصحابُهُ ثم حَلَق بَعْضُهُم وقَصَّر الْبَعْضُ الآخر ... ، وأدُّوا المناسك جميعاً ، ونَحَرُوا الْهَدْي ...

ثُمّ أقاموا بـ « مكة » ثلاثة أيّامٍ ، عقد خلالها رسُولُ الله (ﷺ) على أمّ المؤمنين « ميْمونَة بِنْت الحارث » ، وأراد أنْ يُولم ويَدْعُوا « قُرَيْشاً » ويَسْتزيد من أيام الإقامة في « مكة » ، فرفضَتْ « قريش » ذلك ، ولم تَسْمح إلاّ بما كان عليه الاتّفاق ...

وخَرَج « عليه الصلاة والسلام » والمسلمون ، عائداً إلى « المدينة » ، وفي مكانٍ يُدْعى « سَرَف » بنى بـ « ميْمونة » – رضي الله عنها – ، ثُمّ تابَعَ طريقه ...

* * *

[نَصْـر الله والْفَتْـح]

وحدث قَبْل فَتْح « مكة » ... حدثان بارزان ؛ الأَول : إسلام « خالد بن الوليد » – رضي الله عنه – ، والثاني : غزوة « مُؤْتة » .

إذ وَصَلَتْ إلى « خالِد » في « مكة » رسالةٌ من أخيه « الوليد بن الوليد » الذي سَبَقَهُ إلى الإسلام ، يدعُوهُ فيها إلى الحق قبْل فواتِ الأوان ، ويذكر له فيها أَنَّ رسُول الله «ﷺ» لا يعذر « خالداً » في تأَخُّره عن الإسلام ، وكانَتْ عوامل النُّضُوج ... والنُّزوع إلى الهُدى قد تفاعلَتْ في أعماق « خالِد » ، فَسَعى إلى « المدينة » ليعلن إسلامه وإيمانَهُ بَيْن يدي رسُولِ الله «ﷺ» .

* * *

وفي تِلَك الأَثناء نُمِيَ إلى رسُولِ الله «ﷺ» أَنَّ حُشُوداً من الرُّوم تتهيَّأُ للإغارة على أَرض العرب ، بتحْريضٍ من عملائهم ، للقضاءِ على الإسلام ورسُولِهِ .

فَجهَّز رسُول الله ﷺ جَيْشاً قوامه ثلاثَةُ آلافٍ من المقاتلين المسلمين ، وأَمَّر عليهم ثلاثَة أمراءٍ بالتّتــابُع إذا استشْـهد الأَوّل قام الثاني مكانه ، وهكذا .

وأنْتَ تُلاحظُ – ياولدي العزيز – أنَّه للمرَّةِ الأولى في تاريخ الجهادِ الإسلاميّ يُسمّي رسُول الله «ﷺ» أكْثَرَ من أميرٍ وقائدٍ للجيْش الواحد .. ، وكَأَنَّ حَدْسَهُ « عليه الصلاة والسلام » باسْتِشْهادِ الأمراء الثلاثة كان ماثلاً أمام ناظريّه الشريفيْن .

والأمراء الثلاثة هم :

« زيْد بن حارثة » و« جَعْفر بن أبي طالب » و« عبدالله بن رُواحة » – رضي الله عنهم – وكان « خالد بن الوليد » – رضي الله عنه – في عدادِ جُنْد الجيْش ، لم يُكَلَّف حتى ذلك الحين بقيادَةٍ ولا مسئوليةٍ ، لأنه حديث عَهْدٍ بالإسلام، وهُو ليْس من السابقين .

فلمّا بَلَغُوا « مُؤْتة » – وهي قرية صغيرةٌ من قُرى « الأُرْدُن » على حدود الشام ، آلْتقَوا بجيْشِ الروم ...

وهناك دارت رحى معركةٍ هائلة ، استشهد فيها الأمراء الثلاثة ، وكثير غيرهم من المسلمين ، وأضْحي الجيْشِ الإسلاميُّ مَهدّداً بهزيمةٍ ساحقة ... مُحقّقة ...

وهنا بَرَزَتْ عبقريَّة « خالِدٍ » – رضي الله عنه – ...

فتصدّى للقيادة ، وقد آتَّفَق الْجُنْدُ عليه ، وغَيَّر من مواقع الجنْد ، وجَعَلَ في أقْصى معسكر المسلمين طائفةً من الناس يُثيرون الْغُبار ... إيهاماً وتَضْليلاً للعدوّ بوصولِ مددٍ للمسلمين ، وآستطاع – رضي الله عنه – بهذا التدبير ، أن يَحْفظ جَيْش المسلمين ، ويُضْعف من عزيمة العدوّ ...

وتَحْت جنْح اللّيل كرَّ راجعاً إلى « المْدينة » ...

هذه النّتيجة لم تُعْجب بعض الناس ، فآتّهموا جُنْد الجيش بالْجُبْنِ والخوف .. ، ونَعَتُوهم بـ «الفرار» ... فقال رسُولُ الله «ﷺ» : بَلْ هُم كُرّار ...

وسمَّى رسُولُ الله «ﷺ» « خالداً » – منذ ذلك الحين : [سَيْف الله] ...

* * *

ونَعُودُ يابُنَيَّ العزيز إلى : (نَصْر الله والْفَتْح ...)

يقول الله تعالى :

﴿ إذا جاءَ نَصْرُ الله والْفَتْح * ورَأَيْت النّاس يَدْخُلُون في دين الله أَفْواجاً * فَسَبِّح بِحَمْدِ رَبّك وآسْتَغْفِرْهُ إنَّه كان تَوّابا ﴾ .

فقد كان « بَنُو خُزاعة » قد دَخَلُوا بعد « صُلْح الحديبية » في حِلْف رسُولِ الله «ﷺ» ، كما دَخَلَتْ « بنو بكْر » في حِلْف « قريش » ؛

وتنازَعَ الحيّانِ ذات يَوْم ، « خُزاعة » و« بكْر » ... ، فأعانَتْ « قريش » حُلفاءَها « بني بكْر » ... ، فَقَتَلُوا من « خُزاعة » مقْتلةً عظيمة ...

* * *

وحَضَر «عمرو بن سالم» – الخُزاعي – إلى « المدينة » ، يشكو إلى رسُولِ الله «ﷺ» ما حَدَث من « بنى بكْر » ، ومن « قريش » التي أعانَتْ عليهم عدوَّهم ...

فَأَجاب رسُولُ الله «ﷺ» :

— [نُصِرْتَ يا « عمرو بن سالم » ...]

ولم يَزِدْ على ذلك شيْئا ... ،

وبدأ « عليه الصلاة والسلام » بإعْداد العُدَّة لِفَتْح « مكة » ، في سِرِّيَّةٍ بالِغة ، لم يعرف بها أَحدٌ من الناس ، حتّي ولا أَقْرَب المقرّبين إليه – «ﷺ» –؛ فكانوا يَظُنُّون – على عادتهم – أَنَّه يهيىء لحَرْبٍ أُخْرى ...

ثم إنّ « قريْشاً » أُدْركت أنها تَورَّطت في مناصَرَةِ « بكْر » على « جُزاعة » ، فهذا يَعْني نَقْضَ « صَلْح الحديبية » .. ، فآجْتَمَعَ زعماؤها وتشاوَرُوا ، ثم آتّفقُوا على إرسالِ « أبي سفيان » سَفيراً ... مَنْدوباً عنهم إلى « المدينة » لتأْكيد الْعَهْد وتوثيقِهِ، وتَبْرير المْوقف ...

* * *

وَصَل « أبوسفيان » إلى « المدينة » .. ، وحاوَل أَنْ يُوَسِّط « أبا بكْر » — رضي الله عنه — عِنْد رسُول الله «ﷺ» ، فَرَفَضَ ... ، ثم جاءَ لى « عمر » يَسْتَشْفِعُه ... ويُوَسِّطُه ... ، فأبى أَيْضاً ... ، فَقَصَد إلى دار آبْنَتِهِ « أُمّ حبيبة » — أم المؤمنين — رضي الله عنها ، زوْجة رسُولِ الله «ﷺ» ... ، يائساً قانِطاً ... ، ودَخَل عليها ... ، ثم أراد أن يَجْلس لِيَسْتريح ... ، فإذا بها تَسْحب الْفِراش من تحْتِهِ ...

فقال مُتعجِّباً : أَرَغِبْتِ بِالْفِراش عَنّي ، أم رَغِبْتِ عَنّي بالْفِراش ؟!

فقالت المسلمة المؤْمنة الصادقة :

— هذا فِراشُ رسُول الله «ﷺ» وأنْتَ آمرؤُ مُشْرِكٌ نَجِس ...

فقال في غَيْظٍ وغضب : والله ياآبْنتي لقد أصابَكِ بَعْدي شَرٌّ ...

فَردَّتْ عليه :

بَلْ أصابني كُلّ الْخَيْر ... إذ هداني الله للإسلام ...

* * *

عادَ « أبوسُفْيان » من « المدينة » إلى « مكة » خالي الوِفاض ... ، لم يَسْتطِع أن يحقِّق شيْئًا ، ولما سَأَلَتْه زوجتُهُ «هِنْد بنت عُتْبة» عما فعله في سفارتِهِ، وأَخْبَرها بالتّفاصيل ، قالتْ لهُ : قُبِّحْتَ من سفير قوْم ..!

ومَعَ إطلالة شهر « رمضان » من العام الثامن لِلْهجرة ، كان خروج رسُولِ الله «ﷺ» من « المدينة » على رَأْس جَيْشٍ كثيف الْعَدَدِ والعُدَّة ... باتّجاه « مكة » ، والجنُدُ لايدرون إلى أيْن المسير ، وقد غَطُّوا أرْض الصَّحْراء بأنتشارهم .

* * *

فلّما بَلَغَ « عليه الصلاة والسلام » — « مرَّ الظَّهْران » — ، أقام مُعَسْكرَهُ ، إسْتَعْداداً للتحرُّكِ نَحْو « مكة » ، وهناك أعْلَنَ عن غايتِهِ .. ، لأنه «ﷺ» كان يريد مفاجأةَ « قُرَيْش » حَقْناً للدّماءِ ... وحُرْمةً لِلْبَيْتِ العتيق ...

ثم إن « العبّاس بن عبدالمطلب » — عمّ النبيِّ «ﷺ» — ، خَرَج من معسكر المسلمين راكباً بَغْلَةَ رسُولِ الله «ﷺ» ، قاصداً أطراف « مكّة » لعلّه يلْقى أحَداً من الناس ، فيُنْذِر الْقَوْم بِعَدَم جَدْوى المقاومة والقتال ... ، فألْتقى صُدْفةً بـ « أبي سُفْيان » و« بُدَيْل بن ورْقاء » اللذين خَرَجا لِيَتَحسَّسا الأخْبار ...

فأرْدَفَ « العبّاسُ » — « أبا سُفْيان » — وراءَه على البغلة حتى قدِم بِهِ المعسْكر ، ودَخَلَ بِهِ على رسُولِ الله «ﷺ» ، بعد أنْ أقْنَعَهُ بِقُوَّةِ المسلمين ... وعَدَم جَدْوى التَّصدّي لهُم ...

وأعْلَنَ « أبوسفيان » إسلامَهُ بَيْن يَدَيْ رسُول الله «ﷺ» بَعْد حوارٍ وجدال قصيريْن ... ، فقال « العبّاس » : يارسُولُ الله إن « أبا سُفّيان » رجُلٌ يُحِبُّ الْفَخْرَ فَهَلاَّ جَعَلْتُ لهُ شَيْئاً !؟ فقال « عليه الصلاة والسلام » : نَعَم ... مَنْ دَخَلَ البيْت الحرام فَهُوَ آمن ، ومَنْ أغْلَقَ بابَهُ فهُو آمن ، ومَنْ دَخَلَ دار « أبي سُفّيان » فهُو آمن ...

وشَعَر « أبوسُفيان » بشيّءٍ من الْعِزَّة في نَفْسه ...

وكان من قَبْلُ قد هابَ مَنْظَرَ مُعَسْكر المسلمين ... ، حَيْث نيرانُهُ مُنْتشرة في كُلِّ مكان ، قد غَطَّتِ السَّهْل والجبل ...

وكان قد قال لِـ « العباس » : يا « أبا الْفَضْل » لقد أُصْبَحَ مُلْكُ ابن أخيك اليوْم عظيمًا ...

وردَّ عليه « العبّاس » :

ــ إنّها النُّبُوَّةُ يا « أبا سُفّيان » ...

* * *

وعاد « أبوسُفْيان » إلى « مكة » لِيُنْذِر الناس ، ويُعْلن الأمانَ لمن دَخَلَ البيْت الحرام ، أو أُغْلَقَ بابه ، أو دَخَلَ دار « أبي سُفْيان »

ودَخَلَ رسُولُ الله «ﷺ» إلى « مكة » مُنْتَصِراً شاكراً ... ، من غير قتالٍ ولا إسالةِ دماء ، اللهُمّ إلاّ ما كان من بعض القرشيين المتطرِّفين ، حَيْث حاوَلُوا المقاومة ، عند أعلى « مكّة » ، فتصدّى لهم « خالد بن الوليد » وأُسْكَت مقاومتهم وقضى عليها .

ثم آجْتمع الناسُ في فناءِ « الكعبة » ... ، بعد أَنْ حُطِّمَتِ الأوثان ، وأُزيلت الأصنام ، وهُدِّمت معالم الشِّرْك ، وخَطَبَ فيهم رسُول الله «ﷺ» قائلاً :

ــ يا مَعْشَرَ « قريش » ماتَظُنُّونَ أَنّي فاعِلٌ بِكُم ؟؟!

قالُوا : خَيْراً ... أَخٌ كريم ، وآبْنُ أَخٍ كريم ...

فقال « عليه الصلاة والسّلام » :

ــ إذْهَبُوا فَأَنْتم الطلقاء ...

ومُنْذُ تَلْك اللحظات التاريخية ، عادَتْ « مكّة » المكرَّمة » – ياولدي العزيز – إلى أَحْضان الحنيفيَّة السَّمْحة ، وزالت معالم الْجَهْل والجاهلية عن وَجْهها الوضّاء المشرق ، وطَهَّر الله تعالى بَيْته للطّائفين والعاكفين والرُّكَّع السُّجُود .

* * *

[إلى « حُنَيْن » و« الطائف »]

بعد فَتْح « مكة » واستِسْلام « قُرَيْشٍ » غَرَّ بعض القبائل العربِّية الكُبْرى أن تكُونَ وارثةً لِلزَّعامة والقيادة ، فتأخذ مكان « قريش » ويكون لها النُّفوذ والسُّلْطان ...

من هؤلاءِ قبيلةُ « هَوَازِن » و« ثقيف » ...

وسَمِعَ رسُولُ الله «ﷺ» وهو في « مكّة » أَنَّ قبيلة « هوازن » تُهيِّئ لِحَرْبٍ مع المسلمين ... ، فَخَرَجَ إليهْم ، وقد زاد عَدَدُ جُنْدِهِ كثافةً ، فقال قائِلٌ من الناس :

ـــ لَنْ نُغْلَبَ بعد اليوم من كَثْرةٍ .. !!

وهذه المقالة – ياولدي العزيز – مَبْعَثُها الْغُرور ... ، لابُدَّ من تأْديبها وتَهْذيبها ، وذلك أَمْرُ الله وحُكْمُهُ ، ليكون الجهاد – دائماً وأبداً – خالصاً لِوَجّه الله تعالى ، والْجُنْدُ – كما قال « خالد بن الوليد » – رضي الله عنه – يوْم « الْيَرْموك » – : إنّما يكثرون بالإيمان ويقلُّون بالخذْلان ...

* * *

وعند وادي « حُنَيْن » وَقَع جُنْد المسلمين في كَمينٍ دبَّرَهُ لهم قائد « هوازن » وسيِّدها « مالِكُ بن عَوْف » ، مع عماية الصُّبْح .. وقُبَّل انبلاج

الفجّر ... ، فَتَضَعْضَعَتْ صفوفهم ، وتبدَّد جَمعُهُم إلى فَتْرةٍ ...

ثم نادى رسُول الله «ﷺ» في الناس داعياً إياهُم إلى الثّبات ... ونَزَل عن بغلتِهِ وواجَهَ الموقف راجلاً على قدميْه ؛ وردَّد بصَوْتٍ عالٍ آهْتزَّت له الجبال والودْيان :

ــ أنا النبيُّ لا كذِب ... أنا أبْن « عبدالمطلب » !!! ...

فتقاطر المؤمنون إليه ، وآلتفُّوا حوْله ، وكانَتِ الكرَّةُ على « هوازن » ، في هَجْمةٍ صادقة ، مِمّا غَيَّر الموقف لصالح الحقّ والإسلام .. ، ووقعت الهزيمة على المشركين ، وكان فَضْل الله عظيما .

يقول الحقُّ تبارك وتعالى :

﴿ لَقَدْ نصَرَكُمُ الله في مواطِنَ كثيرة ويوْم حُنَيْنٍ إذْ أعْجبتْكُم كثرتُكم فَلَمْ تُغْنِ عَنكُم شيْئاً وضاقَتْ عَلَيْكُم الأرْض بما رحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُدْبرين * ثم أنْزَلَ الله سكينَتَهُ على رسُولِهِ وعلى المؤمنين وأنْزَلَ جُنُوداً لم تَرَوْها وعذَّبَ الذين كَفَروا وذلك جزاءُ الكافرين * ثُمّ يَتُوب الله من بعد ذلك على مَنْ يشاء والله غفورٌ رحيم ﴾[1] .

* * *

وكانَتْ غنائم « هوازن » كثيرةً ... كثيرة ... ، من الشّياهِ والإبل ... والأمْوال .. وغيرها . ولجأ الفارُّون من المشركين المهزومين إلى « الطائف » ...

فَقَصَدَهم رسُولُ الله «ﷺ» مِمَنْ مَعَهُ ... ، وحاصَرَ « الطائف » حصاراً أمتدَّ أيّاماً وليالي ، إذ كانَتْ مَنيعةً قويَّة ، ولم يَأْذَن الله تعالى بِفَتْحها بَعْدُ ...

---

(١) سورة (التوْبة) الآيات (٢٥-٢٧) .

وأَمَرَ « عليه الصلاة والسلام » بفَكِّ الحصار والرَّحيل ... ، وحين تعجَّب بَعْضَ الناس من ذلك ... ، دعا « عليه الصلاة والسَّلام » قائلاً :
ـــ اللَّهُمَّ آئْتِ بِـ « ثقيف » ...

وصَدَق اللهُ رسُوله ، إِذْ لم يَمضِ عام واحد ... حتى جاءَت « ثقيف » مع كثيرٍ من الْوُفُود ، من كُلّ مكانٍ في شِبْه الجزيرة العربية ، يَدْخُلُون في دين الله أَفْواجا .

[« تَبُوك » ... آخِرُ الغـزوات]

وكانت غزَوةُ « تبوكٍ » آخر غزواتِهِ «ﷺ» ...

وْتبُوك « مدينة تَقَعُ في طَرَفَ شِبْه الجزرةُ العربيَّة فِمّا يلي « الأَرْدُنّ » ... على بُعْد سبعمائة كيلومترٍ ... من « المدينة » ...

وسَبَبُ خروجه «ﷺ» أَنَّهُ سَمِعَ بحشودٍ للرُّوم ...

وكان جَيْشُ المسلمين – كما في بَعْض الروايات – قد بَلَغَ ثلاثين أَلْفاً ...

خَرَج « عليه الصلاة والسلام » في السَّنةِ التاسعة للهجرة ، وكانت سنةً شديدة الجدْب ، قليلة الخيْر والرِّزْق ، في قِلّةٍ من المالِ وعُسْرة .. ، حتى سُمِّي الجيْش يوّمها : ' جَيْش العُسْرة » ؛ ولقد تنافس كثير من الصحابة– رضَوان الله عليهم – في البذْل والعطاء .. ، إرضاءً لِلَّه ورسُولِهِ .، ، وكان سيِّدنا « عثمان بن عفّان » – رضي الله عنه – أَكْثَرُ الصحابة سخاءً وعطاءً ...

كما ظَهَرَ النِّفاقُ يَوْمها جليّاً واضحاً ..، ، سواء من المتخلِّفين القاعدين عن مُواكبة الجيْش ، أَوْ حتى في بعض المرافقين .

فلما بَلَغَ رسُول الله «ﷺ» « تبوك » – بعد رِحْلةٍ شاقّةٍ مُضنية ، لم يَجِدْ جَيْشاً للروم ولا حَشْداً ..!

فأرْسَلَ – عليه الصلاة والسلام » – « خالد بن الوليد » إلى « أُكَيْدِرٍ » ... ، سيِّد « دومة الجَنْدل » .. ، فقَتَلهُ .. وأسَرَ أخاهُ ، وجاءَ بِبَعْضِ الغنائم .

وهناك ... صالَحَ « عليه الصلاة والسلام » ملكَ « أيْلة » – [العقبة] ، وأهْل « جرْباء » و« أَذْرحْ » ...

ثم عاد إلى « المدينة » سالِماً غانماً ، ليستقبلَ وفُود النّاسِ والقبائل من كُلّ مكان ... ، مُعْلنين إسلامهم وطاعتهم ، ودُخُولهم حوْزة الإيمان .

ولمّا كان مِوْسم « الحجّ » في ذلك العام ، العام التاسع من الهجرة ، حجَّ « أبوبكْر » – رضي الله عنه – بالناس ، بِأمْرٍ من رسُولِ الله «ﷺ» .

[حجّـةُ الْوداع ...]

وفي الْسنة العاشرة من الهجرة الشريفة ... حَجَّ « عليه الصلاة والسلام » حجّته الوحيدة ، لم يحجّ غيْرها ، ولذا سُمّيَتْ « حجَّة الوداع » ... إذ كانَتّ وفاتُهُ «ﷺ» بَعْدها بأشْهُرٍ قلائل ..

ومما يُذْكر أنّه وَقَفَ مَعَهُ «ﷺ» يَوْم « عَرَفَة » ، أكثر من مائةِ ألْف مُسْلم ... وشَرَّع «ﷺ» كثيراً من الأحكام المتعلّقة بالحج وأركانِهِ ومناسِكه ... ، وبيَّن كثيراً من الحقائق الأصوليَّة المتعلّقة بالإسلام ، وحياةِ المسلمين ، واقعاً ومُسْتقْبلاً ...

وخطبتُهُ في ذلك مَشْهورةٌ معروفة .

* * *

ونَزَلَ قَوْل الله تعالى :

﴿ الْيَوْم أَكْمَلْتُ لكم دينكم وأتْممتُ عليكمْ نِعْمتي ورضيتُ لكُم الإسلام دينا ﴾[1]

وكانَتْ آخر مانَزَل من الوحْي على قلْب رسُولِ الله «ﷺ» .

ولقد فَطنَ بَعْض الصحابة – رضوان الله عليهم – إلى الْمَعْنى ... ، وأَدْرَكَ أَنَّهُ إنْذار وإعلامٌ بقُرْب وفاتِهِ – عليه الصلاة والسلام – ، بعد أَنْ بلَّغ الرسالة وأدّى الأمانة ونَصَحَ الأُمّة .

* * *

[إلى الرَّفيق الأعْلىٰ]

وفي « المدينة المنوّرة » ، ومع حُلُول شهر ربيع الْأَوَّل ... ، شَهْر موْلِدِه « عليه الصلاة والسلام » ، مَرِضَ بالحمْىّ ، وآشْتَدَّتْ عَلَيْه ، واشتكى من صُداعٍ شديد .. ، ولَزِم الفراش .. ، وتحلّق المسلمون من حوْله بقُلُوب واجفة داعية ، وعُيُونٍ غاصّةٍ بالدَّمْع ... زائغةٍ مضطربة ، ...

ولحق «ﷺ» بالرفيق الأعلى ، واختارَهُ – سُبْحانَهُ – إلى جواره .. ، وفاضَتْ رُوحه الطاهِرَة الشريفة إلى بارْئها ...

* * *

فقام على تَجْهيزه وتكفينِهِ وَدَفْنِهِ عمُّه « العباس بن عبدالمطلب » وابن عمّه وصِهْرِه « عليٍّ ابن أبي طالب » ...

---

(١) سورة (المائدة) الآية (٢) .

وكان يوْماً مَشهوداً ... لم تعْرف « المدينة » مثيلاً له في التاريخ ...
ووُدِّعُ «ﷺ» في حسْرةٍ وأسى ... وبُكاء ...

* * *

وكان « عمر بن الخطاب » – رضي الله عنه – من أكْثر الصحابَةِ جَزَعاً لِمَوتِهِ «ﷺ» ، وغير مَصدِّقٍ ، فكان يَقُول ، إنّها غَيْبَةٌ كَغَيْبَةِ « موسى » – عليه السلام – ، ومن قال غَيْر ذلك ضَرَبْتُ عُنُقه !!!

أما « أبوبكْر » فكان أكْثر ثباتاً وأشدَّ رسُوخاً ، فَأَمسك بـ « عمر » – بعد أن سَمِع مقالته ، ثُمّ هزَّهُ هزّاً شديداً ، وتلا قوْل الله تعالى :

﴿ وما محمَّدٌ إلاّ رسُولٌ قَدْ خلَتْ من قَبْلِهِ الرُّسُل أَفَإنْ مات أَوْ قُتِل آنْقَلَبْتُم على أَعْقابِكُم ومَنْ يَنْقَلِب على عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ الله شيْئاً وسَيَجْزي الله الشاكرين ﴾[1]

فقال « عُمَر » وقد آسْتعادَ بعض هدوئه :

— كَأنّي أَسْمَعُها للمرَّة الأولى ...

وآنْخَرَطَ في البُكاء ...

وخَرَج سَيِّدنا « أبوبكر » – رضي الله عنه – إلى الناس ليقول :

— أَيُّها الناس ... من كان يَعْبُدُ « محمداً » فإن « محمداً » قد مات ، ومن يعْبد الله فإنّ الله حيٌّ لايمُوت ..

هذه العبارة – ياولدي العزيز – قوْلة حقّ وصِدْق .. ، أوْلى بنا نَحْن

---

(١) سورة (آل عمران) الآية (١٤٤) .

أبناء الإسلام أنْ ندّرك مغزاها وأبعادَها ... ، ونهتدي بِهَدْيها .. ، لنُكْمل الطريق على بّينةٍ ...

* * *

اللهُمَّ صَلّ وسلّم على سيدنا ونبيّنا « محمد » أفْضل صلاةٍ وأزكى تَسْليم ... ، وآتِهِ الوسيلة والفضيلة ، والدَّرجة العالية الرفيعة ، وآبْعَثْهُ – اللهُمَّ المقام المحمود الذي وَعَدْته ، إنّك لا تُخْلِفُ الميعاد .

اللهُم ... وآجْمَعْنا بِهِ عند حوْضِهِ المصفّى ، نُشْرب منه شَرْبة لانَظْمأُ بعدها أَبَدا ...

* * *

وتَقَبَّل مِنّا عملنا خالصاً بوَجهك الكريم ، وتقرُّباً إلى رسولنا الحبيب ...

والحمد لَكَ في الأولى وفي الآخرة .

فهرس

قائمة مطبوعات دار المختار

اسم الكتاب	المؤلف	السعر
* من أحوال المصطفى	محمد جلال كشك	٢٥
* مسرور ومقرور	أحمد بهجت	٨٠
* أنبياء الله للأطفال	أحمد بهجت	١٥٠
* مختصر الروح لابن القيم	ليلى مبروك	٣٥
* رساليات فى البيت النبوى	صافيناز كازم	٧٠
* الشيخ حافظ سلامة ومعركة اليهود فى السويس	د. محمد مورو	٣٥
* مسلمات مؤمنات	محمد على قطب	٢٠٠
* إلى الاسلام من جديد	أبو الحسن الندوى	١٠٠
* قصتى مع السادات للشيخ احمد المحلاوى	د. محمد مورو	٥٠
* غارة التتار على العالم الإسلامى وظهور معجزة الاسلام	أبو الحسن الندوى	٣٠
* رحلتى من الكفر إلى الإيمان قصة اسلام الكاتبة الأمريكية المهتدية	د. محمد يحيى مريم جميله	٢٠٠
* أسماء الله الحسنى للأطفال	محمد سليم	٢٠٠
* قصص الصحابة للأطفال	محمد على قطب	٢٠٠
* الصغائر (هفوات المؤمن فى يومه وليلته)	محمد عثمان الخشت	٤٠

اسم الكتاب	المؤلف	السعر
* فضل الصلاة على النبى ﷺ	محمد عثمان الخشت	٦٠
* حكايات عن عمر رضى الله عنه	محمد جلال كشك	٢٥
* أبوذر والحق المر	محمد جلال كشك	٤٠
* رده ولا أبابكر لها	أبو الحسن الندوى	٣٥
* خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز	أبو الحسن الندوى	٣٥
* حجة الإسلام الإمام الغزالى	أبو الحسن الندوى	٦٠
* ويسألونك عن الروح	احمد زين	٢٥
* قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام أبيدوا أهله	جلال العالم	٤٠
* حسن البنا الرجل القرآنى	أنور الجندى	٢٥
* عمر التلمسانى شاهدا على العصر	ابراهيم قاعود	٢٠٠
* الاسلام بين جهل ابنائه وعجز علمائه	عبد القادر عودة	٦٠
* الاسلام وأوضاعنا القانونية	عبد القادر عودة	١٠٠
* الاسلام وأوضاعنا السياسية	عبد القادر عودة	١٧٥
* المال والحكم فى الاسلام	عبد القادر عودة	٨٠
* نحو إسلام سياسى	د. فهمى الشناوى	٢٠٠
* الإسراج والمعراج للأطفال	محمد سليم	٢٠٠

اسم الكتاب	المؤلف	السعر
* علموا أولادكم الصلاة	محمد سليم	١٢٠
* تفسير سورة الأحزاب	أبو الأعلى المودودى	١٢٥
* تفسير سورة الكهف	أبو الأعلى المودودى	٥٠
* تفسير سورة مريم	أبو الأعلى المودودى	٤٠
* خطب الصحابة ومواعظهم	محمد عثمان الخشت	١٥٠
* خطب الشيخ المحلاوى	الشيخ أحمد المحلاوى	١٢٠
* الخطبة المنبرية	محمد سيد احمد الأقرع	١٣٠
* القابضون على الجمر	محمد أنور رياض	٢٥٠
* رحلة إلى الله	د. نجيب الكيلانى	٢٧٥
* حجة الوداع	محمد عثمان الخشت	١٠٠
* علامات الساعة الصغرى والكبرى	ليلى مبروك	٢٠٠
* الحج الميسر والعمرة الميسرة	محمد صلاح الدين	٢٥
* حقوق الزوجين	أبو الأعلى المودودى	١٢٥
* القانون الإسلامى وطرق تنفيذه	أبو الأعلى المودودى	٧٥
* الأحاديث القدسية	نشأت المصرى	٢٥٠
* الوثيقة- الاسلام الحظر	محمود الشاذلى	٥٠
* المختار من دعاء المختار	نشأت المصرى	٢٠
* الحكومة الإسلامية	أبو الأعلى المودودى	٢٥٠

صدر حديثا لدار المختار الاسلامى

اسم الكتاب	المؤلف	السعر
* قصة أيامى - مذكرات الشيخ كشك	عبد الحميد كشك	٣٠٠
* أخبار الجنة والنار لابن كثير	نشأت المصرى	١٠٠
* صلوا كما رأيتمونى أصلى	محمد سليم	١٣٠
* النبى زوجاً	نشأت المصرى	١٥٠
* النبى مبشراً	نشأت المصرى	٨٠
* النبى باسماً	نشأت المصرى	١٣٠
* السبع المنجيات والست الشافيات	محمد سليم	٦٠
* ففروا إلى الله	ابو ذر القلمونى	١٧٥
* معارك الفتح الاسلامى	محمد على قطب	١٠٠
* وبشر الصابرين	محمد على قطب	
* الشهيد وأوسمته العشر	محمد على قطب	
* المحرمات من النساء	فؤاد وفا	٢٥
* خطب الجمعه	صلاح دعبس	
* الشيعة والسنة	د. اسلام محمد	٥٠
* ملف الكنيسة المصرية	د. محمد مورو	٢٥
* الاسلام هو الحل الوحيد	رجاء جارودى	٣٠
* الشباب وحرية الاختيار	د. رشدى فكار	٢٥
* القضية الفلسطينية من عبد الناصر إلى السادات	د. محمد مورو	٥٠
* فتح القسطنطينية	محمود الشاذلى	٨٠
* رسالة إلى اختى المسلمة	الشهيد سيد قطب	٢٥

رقم الايداع ٨٨/٢٢٤٧

الترقيم الدولى ٤ -٠٠٧- ١٠٦ -٩٧٧ ISBN

الناشر

للنشر والتوزيع والتصدير

١٦ شارع كامل صدقي بالفجالة

القاهرة ت ٩١١٣٧١

